الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المركز الجامعي بالوادي

معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية **قسم التاريخ**

الاتجاهات المعارضة للدولة الأموية في عهد عبد الملك بن مروان

إعداد الطالبين :

– مصطفى دهانـة

– ياسين شتحونـة

إشراف الأستاذ:

- عبد الحميد العابد

لجنة المناقشـة :

1 - رابح رمضـان رئيســا

2 - عبد الحميد العابد مشرفا ومقررا

3 - واعظ نويــوة مناقشــا

السنة الجامعية :1431هـ-1432هـ/2010م – 2011م

مقدمـــة :

امتد عصر الدولة الأموية في التاريخ الإسلامي تسعة عقود أو تزيد ، من سنة 41هـ إلى سنة 132هـ وفي خلال هذه الفترة مدت حدود الدولة الإسلامية ، ورفعت راية الإسلام من حدود الصين شرقا إلى الأندلس وجنوب فرنسا غربا ، ومن آسيا الصغرى شمالا حتى المحيط الهندي جنوبا ، وعمل الخلفاء الأمويين بجد ومثابرة على نشر الإسلام في هذه الرقعة الهائلة ، وعلى استتباب الأمن وتوطيد الحكم الإسلامي ، حتى أصبحت هذه المساحة من الأرض بمن عليها من أمم وشعوب تشكل عالما إسلاميا واحدا ، كما أن عصر الدولة الأموية كان عصر نمو الحضارة الإسلامية التي وضعت بذورها من عهد الرسول (ﷺ) في ميادينها المختلفة من إدارة وعمارة وعلوم ، وهذه كلها أعمال جليلة تشهد للأمويين بدورهم البارز في التاريخ الإسلامي ، ويزداد الإعجاب بهم وتقديرهم إذا عرفنا أنهم قامو ا بكل تلك الأعمال ، في الوقت الذي كانوا يصارعون فيه أعداء أشداء من كل لون ناصبوهم العداء ، وحقدوا عليهم اشد الحقد ، فلم يدعوا فرصة للثورة عليهم إلا انتهزوها ، فجعلوا الدولة تعيش معظم أيامها في صراع داخلي ، فلا تكاد تتغلب على عدو حتى يبرز لها عدو آخر .

ولقد جاء اختيارنا لهذا الموضوع لأسباب عدة كان أبرزها :

هو أهمية دراسة التاريخ الأموي الذي تميز بكثرة الصراعات والفتن التي كادت تعصف بالدولة ويزور شخصيات عديدة كان لها دور كبير في وضع حد لهذه الصراعات.

ولعل ابرز عهد في عصر الدولة الأموية الذي شهد تلك المواجهات هو عهد (عبد الملك بن مروان) ، من هذا المنطلق يمكننا طرح الإشكالية التالية :

«فيما تمثلت الاتجاهات المعارضة للدولة الأموية في عهد عبد الملك بن مروان ؟»

وللخوض أكثر في الإشكالية قمنا بطرح التساؤلات الفرعية التالية :

- ما هي ظروف تولي عبد الملك بن مروان الخلافة؟
- من هم معارضي عبد بن مروان ؟
- فيما تمثلت أسباب المعارضة ؟

- كيف كان موقف عبد الملك بن مروان من معارضيه ؟

للإجابة على الإشكالية والتساؤلا ت الفرعية قمنا بتقسيم موضوعنا إلى فصلين الفصل الأول تطرقنا فيه إلى ظروف تولى عبد الملك بن مروان الخلافة ، أما في الفصل الثاني تطرقنا إلى الأحزاب والقوى المعارضة لبنى أمية في عهد عبد الملك بن مروان .

وبالنظر إلى طبيعة الموضوع فانه يستلزم إتباع المنهج التاريخي الوصفي لملاءمته في سرد الوقائع والأحداث التي تطرقنا لها إضافة إلى المنهج التحليلي للوقوف على حقيقة تلك الوقائع والأحداث .

وفي دراستنا لهذا الموضوع اعتمدنا العديد من المصادر والتي كان من أهمها تاريخ الرسل والملوك لصاحبه محمد بن جرير الطبري في جزئيه السادس والسابع، والكامل في التاريخ لأبن الأثير.

كما اعتمدنا العديد من المراجع أهمها ضياء الدين الريس في كتابه عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية ، و محمد علي الصلابي في كتاب الدولة الأموية عوامل الازدهار و تداعيات الانهيار .

إن من ابرز ما وقفنا عليه عند اعتمادنا على مجموعة من المصادر هو تضارب التواريخ بشكل كبير في بعضها، إضافة إلى اعتمادها على التواريخ الهجرية دون التواريخ الميلادية ، في المقابل تتفق في سردها لكثير من الأحداث ، وهو ما يزيد من مصداقيتها ، أما المراجع فقد ساعدتنا في نقل الأحداث التاريخية بشكل مبسط ومفصل على عكس ما تناولته المصادر .

ومن الصعوبات التي واجهتنا في بحثنا هذا هي تشعب الموضوع وكثرة المصادر التي تناولته واختلاف التواريخ إضافة إلى بعض الغموض الذي شاب بعض الأحداث .

وفي الأخير لا يسعنا إلا أن نتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساعدنا في انجاز هذا البحث ونخص بالذكر الأستاذ المشرف ، وكل من قدم لنا يد العون والمساعدة.

الفصل الأول : ظروف تولي عبد الملك بن مروان الخلافة

المبحث الأول : أوضاع الدولة الأموية قبل خلافة عبد الملك بن مروان .

المطلب الأول : الصراع على السلطة الأموية (الصراعات الداخلية)

افتتحت الدولة الأموية عام 61 هـ ليجد الخليفة « يزيد بن معاوية » الذي كان يحكم الدولة في ذلك الوقت نفسه أمام ثورات عدة ضد حكمه ، وهذا ما جعل الثورات ضد بني أمية أيضا ، وذلك لأن كثيرا من الناس لم يكونوا راضين عن تولية « يزيد » منذ البداية وكثيرا لم يرضوا عن أعماله فيما بعد ، ولكن كان في مقدمة الأسباب سياسة الغشم والتجبر التي اتبعها بعض ولاة « يزيد » . وفي العام التالي توجه وفد من أهل المدينة لزيارة الشام فشاهدوا مظاهر الترف والإسراف ، وسمعوا عن بعض سيرة « يزيد » ما أغضبهم ، فقد قيل انه يميل إلى اللهو والفسوق وهم الذين يتطلعون إلى السير المثالية من أمثال سيرة أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) فعادوا وقد ازداد سخطهم ، وهم مصممون على القيام بثورة ، فعند قدومهم أعلنوا خلع « يزيد » وولوا عليهم رئيسا منهم وحاصرو بني أمية الذين كانوا بالمدينة ثم أخرجوهم.([1])

في ظل هذه الأوضاع قام « يزيد » بإرسال جيش قوامه 10 آلاف مقاتل بقيادة « مسلم بن عقبة » لمقاتلة أهل المدينة ،فحدث الموقعة التي تسمى « موقعة الحرة » في أواخر سنة 63 وقد قتل فيها عدد غير قليل من أهل المدينة ، واستولى الجيش عليها .

بعد أن فرغ الجيش من مهمته سار متوجها إلى مكة لمحاربة أهلها الذين خرجوا على «يزيد » وحكومته وانضموا إلى ابن الزبير « عبد الله » الذي ضل معتصما بالحرم في مكة ويدعوا سرا إلى نفسه ، وكان ذلك في أوائل سنة 64هـ ، وضرب الحصار عليها ، وفي الطريق مات « مسلم بن عقبة » ، وخلفه علي في قيادة الجيش « الحصين بن نمير

[1] الريس ضياء الدين ، عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية – حياته وعصره،(د.ط)،المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر، القاهرة (د.ت)، ص20.

ألسكوني » وكانت جموع من الخوارج من « البصرة » قد قدمت على « عبد الله بن الزبير» ، لما سمعت بمسير هذا الجيش إلى مكة ، وذلك لتشترك في الدفاع عن الحرم وليوحد جهودهم في مقاومة الدولة الأموية وإنجاح الثورة ضدها. ([1])

وقد ولي ابن الزبير قائدا على الجيش.... « المنذر » على وخرج بمن معه لمقاتلة جيش الشام ، فقتل المنذر في الموقعة وبعض أبناء المهلب ولكن « ابن الزبير » ظل يقاتلهم ولم يمكنهم أبدا من دخول مكة ، فاضطر جيش الشام إلى الاكتفاء بالحرم وضلت مكة محاصرة طيلة شهر صفر واستمر ذلك حتى آخر ربيع الأول ، فضاق الأمر على أهلها ، وبينما هم كذلك لذا بالخبر يصل إلى « ابن الزبير » بان يزيد قد توفي في 14 ربيع الأولى سنة 64هـ اثر وقوعه من فوق فرسه عندما كان يركض في سباق ، أصيب بكسور قضت عليه([2])،وكانت مدة حكمه ثلاث سنوات وثمانية أشهر (60هـ - 64هـ) تميزت بوقوع هذه الأحداث الثلاثة وهي قتل الحسين ، مقاتلة أهل المدينة ، وحصار مكة فمات وسط شعور البغض له ولحكم بني أمية .

طلب الحصين بن نمير قائد جند الشام الذي كان يحاصر مكة عندما تيقن من موت «يزيد بن معاوية » أن يقابل ابن الزبير وتمت المقابلة خارج مكة ، حيث عرض « الحصين » « عبد الله ابن الزبير » أن يبايعه ، على أن يخرج معهم إلى الشام ويأخذ له البيعة من باقي الجند في دمشق ويتم له بذلك أمر الخلافة ، وكان ما جاد في حديثه : « أنت اليوم أحق الناس بهذا الأمر ، هلم فلنبايعك ، ثم اخرج معي إلى الشام ،فان هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم ، فو الله لا يختلف عليك اثنان وتؤمن من الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك ، والتي كانت بيننا وبين أهل الحرة »([3]). فأبى عبد الله بن الزبير أن يجيبه إلى ما طلب ، وانتهت المقابلة بان اختلفا ، وحينئذ أمر « الحصين

[1] جمال خليل إبراهيم ، الخليفة عبد الملك بن مروان ، ط1، دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع ، الإسكندرية ، 1991م، ص21.

[2] الريس ضياء الدين ، المرجع السابق، ص23.

[3] طلس محمد اسعد ،تاريخ العرب ، ج1، ط2، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ،1979م ، ص68.

» جنوده بالعودة نحو الشام وفي طريق عودته مر على المدينة ، فقال له بنو أمية لا تبرح حتى تحملنا معك إلى الشام ، فخرجوا معه وذلك لأن موقفهم أصبح حرجا بعـد موت « يزيد» لأنهم ساهموا في اضطراب الأمر بالشام ،خاصة بعدما كان من علاقتهم بالقتال مع أهل المدينة في موقعة الحرة ، كما أن « ابن الزبير » - وقد استقر له الأمر- عين أخا له واليا على المدينة ، وأمره أن يخرج من بقي بها من بني أمية .

عهد يزيد لأبنه « معاوية » فبايع له الناس بعد وفاة أبيه،ولكن « معاوية » هذا كان كارها لتولي المنصب أو أية مسؤولية، فلم يخرج لمباشرة أي عمل من أعمال الدولة ، وطلب من القوم أن يولوا غيره ، وفي آخر ولايته جمع الناس فخطب وقال [1] : « إني قد نظرت في أمركم فضعفت عنه ، وابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب ، فلم أجد فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجد فانتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم».

وتغيب في منزله ثم مات بعد قليل دون أن يتعهد لأحد (وهو في العشرين من عمره) فوقع الاختلاف حينئذ شديدا بين أهل الشام فانقسموا إلى فريقين رئيسيين : الأول اخذ يتصل « بابن الزبير » ويريد أن يبايعه ، ويخرج الأمر نهائيا من البيت الأموي . والفريق الثاني يرفض ذلك ويصر على بقاء الأمر في بني أمية كما هو ، ولكنه لا يستطيع اتخاذ قرار موحد ، لأن « خالد بن يزيد » صغير السن لا يرضى به كثير من الناس ، ولا يصلح بعد لتولي هذا المنصب الخطير ، وليس من السهل اختيار غيره فاشتد الخلاف ولم يكن بالإمكان الوصول إلى قرار وبقي الشام بدون خلافة ، أي دون حكومة أو دولة واستمر الحال كذلك نحو ستة أشهر.[2]

[1] المرجع نفسه ،ص72.
[2] الريس ضياء الدين ، المرجع السابق، ص 28.

ووسط هذه الأزمة وصل مروان بن الحكم وابنه عبد الملك وأسرته من المدينة إلى دمشق ينوون الإقامة بالشام فاشتركوا في المداولات ثم وفد عليهم آخرون ، وبدأت الأمور تتطور ثم بعد قليل أخذت اتجاها جديدا .([1])

[1] حسن حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والأندلس (1هـ - 132هـ / 622م- 749م)،ط13، دار الجيل ، بيروت ، 1991م ، ص236.

المطلب الثاني : انتقال الخلافة من البيت السفياني إلى البيت المرواني :

عندما وصل « عبيد الله بن زياد » إلى الشام ، وجد القوم في أمر مريج ، وهم منقسمون إلى فريق يدعو إلى « ابن الزبير » سرا أوجهرا ، وفريق يدعو إلى بني أمية ، حيث كان زعيم الفريق الأول «الضحاك بن قيس الفهري » الذي كان أمير دمشق ، وكانت له من قبل مكانة كبيرة عند «معاوية» وابنه « يزيد » ويؤيده «النعمان بن بشير الأنصاري» أمير حمص و«زفر بن الحارث الكلابي» (شيخ قيس) أمير قنسرين ، وزعيم الفريق الثاني «حسان بن مالك بن بجدل الكلبي» (شيخ القبائل اليمنية التي من أكبرها قبيلة كلب) أمير فلسطين والأردن وذلك منذ عهد معاوية ويزيد وهو صاحب النفوذ الأكبر في الشام لأن العرب اليمنية كانت لها الأغلبية في الشام ، ويكونون أكثرية الجنود كما أن«حسانا» وعشيرته كانوا أخوال « يزيد»([1]) ، لذا يؤيده في موقفه بنو أمية جميعا وكذلك أكثر قواد الجيش والجنود ، ثم إن هذا الفريق الأخير كان بدوره ينقسم إلى شطرين فجانب يدعو إلى « خالد بن يزيد بن معاوية » بحق انتظام الوراثة ، وهذا هو حزب حسان بن مالك ومن تبعه ، والجانب الثاني في نفس الوقت الذي يؤيدون فيه بني أمية لا يرضون « بخالد » لأنه لا يزال غلاما حديث السن ، ولكنهم لا يعرفون من يرشحون بدلا منه ، وكان في مقدمة هذا الجانب « الحصين بن نمير ألسكوني » الذي كان قائد الجيش الذي توجه من قبل لحصار مكة ، كما كان من هذا الرأي أهل الأردن وهم قوة كبيرة بين العرب. ([2])

هكذا كان أهل الشام مختلفين منقسمين وظل أمرهم على هذه الحال ، وكان لابد إن يؤدي التنازع والتوتر إلى حدوث مواجهات ، فوقعت بعض المناوشات فكتب « حسان بن مالك » إلى « الضحك بن قيس » كتابا يبين له فيه حق بني أمية في الخلافة ، ويذكره بما أسدوا إليه من معروف وما رفعوا من قدره ، ويدعوه إلى الطاعة والجماعة والبيعة لبني أمية ، كما طلب منه أن يقرأ كتابه هذا على الناس في المسجد ، ولكنه في نفس الوقت كتب نسخة

[1] نقصد أن حسانا وعشيرته كانوا أخوال يزيد بن معاوية وابنه ، فيزيد أمه هي ميسون بنت بجدل الكلبية من عشيرة كلب.

[2] طلس محمد اسعد ، المرجع السابق ، ص74.

ثانية ، وأعطاها للرسول وقال له :إن لم يقرأ « الضحاك » كتابي على الناس فقم أنت اقرأ عليهم الكتاب ، كما كتب نسخة ثالثة أرسلها إلى بني أمية ، وطلب أن يحضروا هذا الاجتماع. فلما كان يوم الجمعة صعد الضحاك المنبر فقام إليه الرسول وطلب منه أن يقرأ كتاب « حسان » على الناس ، فرفض الضحاك وأمره بالجلوس فقام الرسول بقراءة الكتاب ، فقام بنو أمية وصدقوا حسانا وأيدهم الرؤساء من غسان وكلب وقام آخرون من أتباع الضحاك فسبوا « حسانا » واثنوا على « ابن الزبير» وهكذا جال الناس بعضهم في بعض بالمسجد وتضاربوا فأمر « الضحاك » حراسه بحبس الرؤساء الذين صدقوا مقالة " حسان " وشتموا ابن الزبير فأخذهم ، ونزل الضحاك فصلى بالناس الجمعة،فجاءت جموع من غسان وكلب ، فهاجموا السجن واخرجوا المسجونين ، وهكذا زاد هذا الاشتباك العنيف من حدة التوتر.

وفي جمعة أخرى خرج الضحاك إلى مسجد دمشق فذكر يزيد بن معاوية ووقع فيه وذمه فقام إليه شاب من قبيلة كلب بعصا كانت معه فضربه بها ، والناس جالسون وهم متقلدون سيوفهم،فقام بعضهم إلى بعض واقتتلوا. قيس تدعو إلى ابن الزبير ونصرة الضحاك وكلب تدعو إلى بني أمية ثم إلى « خالد بن يزيد » ويتعصبون ليزيد .([1])

وكما اشرنا فيما سبق ، وصل « عبيد الله بن يزيد » إلى الشام، فكان وجوده بدمشق احد العوامل الحاسمة حيث أسرع لمقابلة « مروان بن الحكم » وتناقش معه عن الحال الذي تتخبط فيه الدولة ، فوجده يائسا لا يرى أملا في رأب الصدع وزوال الخلاف ، فأخذت تراوده الفكرة في أن يتوجه إلى « ابن الزبير» ، ليبايعه ويأخذ منه أمانا لأسرته وبني أمية. فأعرب « عبيد الله » عن دهشته وأعلن استنكاره لهذه الفكرة التي جالت بخاطر «مروان» ، وقال له « قد استحييت لك مما تريد أن تصنعه ، أنت كبير قريش وسيدها تمضي إلى أبي خبيب (يعني ابن الزبير) فتبايعه ؟ أنشدك الله أن تفعل فأنت أولى بها منه » ([2])، فقال له

[1] حسن حسن إبراهيم ، المرجع السابق ، ص237.

[2] الريس ضياء الدين ، المرجع السابق، ص44.

مروان : « فما الرأي » فرد عبيد الله قائلا : « أن تنهض وتدعو إلى نفسك ،وأنا أكفيك قريشا ومواليها فلا يخالفك منهم احد ». وكان بنو أمية وعمرو بن سعيد بن العاص حاضرين فقال عمرو : « صدق عبيد الله ، أنت شيخ قريش وسيدها ، وأنت أحق الناس بالقيام بهذا الأمر » . فوقع هذا الكلام من نفس مروان الموقع الطيب وصادف منه موضع القبول فقام مروان بن الحكم ومعه بنو أمية ومن تبعه فسار وهو يقول : « ما فات شيء بعد»،فنهض «مروان» للعمل وتكفل عنه « عبيد الله بن زياد » و« عمر بن سعيد » وكثير من بني أمية وغيرهما في الدعوة إليه، وفي نفس الوقت تماشت الفكرة مع ما كان يتمناه أهل الأردن ويرضوه فان « حسان » حينما توجه إلى أهل الأردن ليدعوهم إلى بيعة « خالد بن يزيد» فأجابوه : « إننا نوافقك على أرائك : إنا نشهد مثلك « ابن الزبير» ناكث ، وان الذين قتلوا يوم الحرة ليسو ناجين ، وان يزيد كان على حق ....، ونحن لا نريد أن يخرج هذا الأمر عن بني أمية، وإنا نبايعك على أن نقاتل معك من خالفك وأطاع ابن الزبير ، ولكن بشرط أن تجنبنا هذين الغلامين، فإنا نكره ذلك (يعنون ابني يزيد بن معاوية عبد الله وخالدا) فإنا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي »، لقد كان مروان المرشح المكافئ لابن الزبير في سنه وحنكته وتجربته،وفي نفس الوقت من بني أمية ([1]).

أما الضحاك بن قيس أحس بالحرج وشعر بالخطر فبدا عليه التردد فلجأ للمساومة، إذ اتصل ببني أمية ودعاهم إلى الاجتماع عنده، فحضروا إليه من الغد. اقترح الضحاك أن يعقد اجتماع عام أو مؤتمر يحضره الجميع ليتبادلوا الآراء ويتفقوا على اختيار رجل من بني أمية ويولونه الخلافة فاختاروا أن يكون مكان الاجتماع « الجابية » وهي موقع بين الأردن ودمشق.

خرج حسان وأهل الأردن وبنو أمية إلى الاجتماع بدون تردد، أما الضحاك وأتباعه فتوقفوا في الطريق ثم عدلوا عن الحضور للمؤتمر ، والسبب هو أن بعض أصحاب " الضحاك " ممن كانوا أجابوا إلى بيعة ابن الزبير لاموه بشدة على تغيير رأيه، وأنكروا

[1] المرجع نفسه، ص45.

تحوله لبني أمية ، وأثاروا فيه روح العصبية ثانية فعادة إلى موقفه الأول ، أو ربما كانت هذه المسألة كلها حيلة أو مناورة، حتى يتمكن من التخلص من الحصار الذي كان حوله في دمشق. ([1])

وقد لبث الحاضرون يتناقشون مدة طويلة ، ويدل ما ورد من بعض المناقشات فيه على أن وجهات النظر كانت تتبادل فيه بحرية ، فمن ذلك ما جرى بين «مالك بن هبيرة السكوني » و«الحصين بين نمير السكوني» فالأول كان يهوى بني يزيد، ويحب أن تكون الخلافة فيهم، أما الثاني فكان من مؤيدي «مروان بن الحكم» فقد ورد عنه انه قال «مروان شيخ قريش ، والطالب بدم الخليفة المظلوم ، وهو يدبرنا ويسوسنا ، ولا يحتاج إلى أن ندبره ونسوسه ، وغيره يحتاج إلى أن يدبر ويساس».([2])

كما جرت مناقشة أخرى بين «حسان بن مالك » ورجل يدعى «ابن عضاه الأشعري » دامت طويلا، إذ كان حسان ينادي بالبيعة لـ «خالد بن يزيد »الذي يرى انه معدن الملك ومقر السياسة والرئاسة ، أما «ابن عضاه» فكان ينادي «لمروان بن الحكم » فقال لما شهد عنه : «يا قوم هذا صاحبنا الذي يصلح له الأمر ، وهو ابن عم عثمان أمير المؤمنين وشيخ قريش وسيدها».([3])

وبعد أيام اجمع المتناقشون على البيعة «لمروان بن الحكم » فاقتنع حينئذ «حسان بن مالك» وقال: «رأيي لرأيكم تبع إنما كرهت أن تعدل الخلافة لابن الزبير، وتخرج من آل هذا البيت»، وفي الحقيقة أنهم في هذا الاجتماع عرضوا أسماء المرشحين وبحثوا في أمر كل واحد منهم وممن ذكرت أسماؤهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير وخالد بن يزيد ، ومروان بن الحكم إذ قال أهل الأردن لمروان- وكانوا هم أكثر المؤيدين له

[1] الخضري بك محمد ،محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية –الدولة الأموية – ،ج1 ، ط1 ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ، لبنان ،2002م ، ص372 .(بتصرف)

[2] جفال خليل إبراهيم ، المرجع السابق ، ص37.

[3] المرجع نفسه ، ص39.

منذ البداية- «أنت شيخ كبير وابن يزيد غلام وابن الزبير كهل،... ابسط يدك نبايعك » فبسط يده وبايعوه. ([1])

وهكذا اجمع مؤتمر الجابية على رأي واحد واتفقت الكلمة ، وفي يوم الأربعاء الثالث من ذي القعدة عام 64هـ قام الناس جميعا فبايعوا مروان بن الحكم على أنه خليفة المسلمين وتفاهموا على أن يكون الأمر من بعده لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد بن العاص والتفت بنو أمية حول مروان وقالوا : «الحمد لله الذي لم يخرجها منا »([2])، وفي الأثناء أسرع عبيد الله بن زياد واخذ البيعة على أهل دمشق لمروان .

المطلب الثالث : مروان بن الحكم والخلافة

قامت دولة آل مروان إذن في أواخر عام 64هـ واستقبلت أول سنة لها في فاتحة عام 65هـ وقد بدأ تاريخها– من الوجهة القانونية – منذ عقدت البيعة لمروان في مؤتمر الجابية

[1] طلس محمد اسعد ، المرجع السابق ، ص ص 77 – 78.
[2] عبد اللطيف عبد الشافي محمد ، العالم الإسلامي في العصر الأموي (41هـ - 132هـ)، ط1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، القاهرة ، 2008م ، ص127.

ولكن– من الوجهة الواقعية – ما كان يضمن لها البقاء والاستقرار، إلا إذا خاضت حربا مع المنشقين الذين لازالوا بالشام ،فإن الضحاك بن قيس ومن تبعه كانوا لا يزالون يجمعون قواتهم في مرج راهط([1]).

ولما علموا بقرار المؤتمر أظهروا خلافهم لبني أمية وأعلنوا مبايعتهم «لابن الزبير » وأرسل الضحاك إلى«النعمان بن بشير» و«زفر بن الحارث» و« نائل بن قيس» وليمدوه بالجنود، فأمده «النعمان بن بشير » عامل حمص بـ «شرحبيل بن ذي الكلاع » ، وأمده «زفر بن الحارث » بـ «قيس بن طرف بن حسان الهلالي »، فاجتمعت على «الضحاك» قيس بفروعها، و«لمروان» كلب، غسان، السكون، كندة، وطيء، حيث قاد «مروان »جيشه بنفسه، فكان «عمرو بن سعيد بن العاص» على ميمنته و «عبيد الله بن زياد» على مسيرته وكان كل جيش لا يقل عن اثني عشر ألفا.([2])

قبيل الموقعة استولى أحد قواد «مروان» من غسان على دمشق، وغلب على الخزائن وبيت المال، فأمد «مروان» بالأموال والرجال والسلاح ، بعدها التقى الجيشان وحدثت موقعة مرج راهط في محرم عام 65هـ واستمرت عشرين يوما ، حيث أسفرت عن مقتل «الضحاك بن قيس » وانهزم جيشه ، كما قتل العديد من جانب جيش «مروان»، وبلغ الخبر«النعمان بن بشير » وهو بحمص، فخرج هاربا ومعه امرأته وولده فتبعه قوم من حمير، وقتلوه في البرية ، كما هرب «زفر بن الحارث» من قنسرين إلى مدينة قرقيسياء (مدينة على الفرات) ، وقال في ذلك قصيدته المشهورة التي جاء فيها:

أريني سلاحي لا أبـالك إنني أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا

لعمري لقد أبقيت وقيعة راهط لحسان صدعا بيـننا متنائيا([3])

[1] - عبد العزيز أمير ، الوجيز في تاريخ الإسلام والمسلمين ، ط1، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2003م ، ص471.

[2] الريس ضياء الدين ، المرجع السابق ، ص ص 55-56.

[3] الخضري محمد بك ، المرجع السابق، ص 374.

ووجه مروان «حبيش بن دلجة القيني» إلى الحجاز لمحاربة «ابن الزبير»، فسار حتى أتى المدينة، وعليها «جابر بن الأسود بن عوف الزهري» عامل «ابن الزبير»، فكتب «ابن الزبير»إلى عامله على البصرة «الحارث بن عبد الله» أن يوجه إليهم جيشا فلقوا حبيشا فقتلوه هو وعامة جنده، فلم يفلت منهم إلا القليل فكان فيمن أفلت «يوسف بن الحكم الثقفي» وابنه «الحجاج بن يوسف».([1])

ثم خرج «مروان» يريد مصر، فلما سار إلى فلسطين وجه «نائل بن قيس الجذامي » متغلبا على البلد بعدما اخرج «روح بن زنباع» منها فحاربه، فلما لم يكن «لنائل» قوة على مواجهة«مروان» ومحاربته هرب ، ولحق «بابن الزبير » ،وأتم «مروان» المسير إلى مصر حتى دخلها، فصالحه أهلها وأعطوه الطاعة واخرج «عبد الرحمان بن جحدم الفهري» ودخل عين شمس ثم الفسطاط في الأول من جمادي الأولى سنة 65هـ، وبنى الدار البيضاء لتكون مقرا له،كما قام بقتل«الأكدر بن حمام بن عامر بن صعب اللخمي».

وسط هذه الظروف قام «سليمان بن صرد الخزاعي » و «المسيب بن نجبة الفزاري » وخرجا في جماعة معهما من الشيعة بالعراق، بموضع يقال له عين الوردة يطلبون بدم «الحسين بن علي » ويعلمون بما أمر الله به إذ قال جل وعلا : (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم،فتاب عليكم،إنه هو التواب الرحيم) ([2])، واتبعهم خلق من الناس ، فوجه إليهم مروان عبيد الله بن زياد وقال " إن غلبت على العراق فأنت أميرها " فلقي سليمان بن صرد فلم يزل يحاربه حتى قتله ، ولما سار مروان إلى الصنبرة من أرض الأردن، منصرفا من مصر، بلغه أن حسان بن بجدل قد بايع عمرو بن سعيد فاحضره وقال له : قد بلغني انك بايعت عمرو بن سعيد فأنكر ذلك ، فقال له : بايع لعبد الملك، ثم لعبد العزيز بن مروان،ولم يبرح «مروان» الصنبرة حتى توفي في شهر رمضان سنة 65هـ وكان سبب وفاته انه تزوج أم خالد بن يزيد بن معاوية، فدخل هذا الأخير يوما

[1] حسن حسن إبراهيم ، المرجع السابق ، ص237.
[2] الخضري بك محمد ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (العرب قبل الإسلام – البعثة النبوية – الخلافة الراشدة)الدولة الأموية والدولة العباسية،(د.ط)، دار الكتاب العربي ،بيروت ،لبنان ،2006م ، ص ص314 – 315.

على مروان فأفحش له في القول ، ثم أعاد عليه في يوم آخر ، فدخل خالد على أمه واخبرها فقالت : والله لا يشرب البارد بعدها، فصيرت له سما في لبن فلما دخل سقته إياه وقال بعضهم أنها قالت لابنها : لا يعرفن ذلك منك واسكت فاني اكفيكه،ولما نام مروان وضعت على وجهه وسادة ولم ترفعها حتى قتلته ،بذلك اخلف « مروان بن الحكم » ذلك العهد وبايع ابنيه وعبد الملك ثم عبد العزيز([1]) .

المبحث الثاني :تولي عبد الملك بن مروان الخلافة

المطلب الأول : مولده ونشأته

[1] الطبري محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، ج7(من 64هـ إلى 85هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان ، 2010 م ،ص83.

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية([1]) .

ولد في المدينة في خلافة عثمان بن عفان،وقد اضطربت المصادر في تاريخ مولده اضطرابا كبيرا، فابن سعد في طبقاته الكبرى يذكر أن مولده كان سنة 26هـ([2])، ويورد ابن الأثير روايتين في عمره حين مات ،في الأولى أن عمره ستون سنة وفي الأخرى ثلاث وستون سنة([3])، وروى المسعودي أن عمره بلغ ستا وستين سنة ([4])، وذكر الطبري أن مولده كان سنة ست وعشرين ،ثم ذكر في تقدير عمره ثلاث روايات الأولى ستين سنة والثانية ثمان وخمسين سنة ، والثالثة ثلاث وستين سنة ([5]).

ونجد عدة من هذه المصادر تتفق على انه شهد يوم الدار (الذي كان سنة ست وثلاثين) مع أبيه وهو ابن عشر سنوات ، أي أن أغلب المصادر اتفقت على انه ولد سنة ستة وعشرين هجرية في شهر رمضان. نشأ بالمدينة نشأة علمية ، وتتلمذ على يد كبار الصحابة من أهلها ، وروى عنهم الحديث مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب،أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وروى عن أم المؤمنين أم سلمه، وروى أيضا عن أبيه وعن معاوية بن أبي سفيان، وكان يكثر من مجالسة العلماء والصالحين وروى عنه جماعة من التابعين منهم «خالد بن معدان» ، «عروة بن الزبير» ، «عمر بن الحارث» ،«وجرير بن عثمان». كان من فقهاء المدينة المعدودين ، إذ روى الأعمش عن أبي الزناد قائلا: كان فقهاء المدينة أربعة: «سعيد بن المسيب» و«عروة »، «وقبيصة بن ذؤيب»، و«عبد الملك بن مروان»([6]).

---

[1] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج4، ط3، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، 1980 م ، ص94.

[2] ابن سعد ، الطبقات الكبرى ،ج5 ،(د.ط)،دار صادر ، بيروت ، 1957 م، ص224.

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص249.

[4] المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج3 ، ط4 ، القاهرة ، 1974م ، ص36.

[5] الطبري محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، ج6،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت، لبنان ، 2010م، ص412.

[6] عبد اللطيف عبد الشافي محمد ، المرجع السابق، ص134.

وفي رواية أخرى لنافع انه قال : «لقد رأيت المدينة وما فيها اشد تشميرا ولا افقه ولا اقرأ لكتاب الله من عبيد الملك بن مروان»

وقد لقب عبد الملك بأبي الأملاك، لأنه أبو أربعة من خلفاء بني أمية هم: «الوليد» «سليمان» ، «يزيد»،و«هشام»،وكان يلقب أيضا أبا الذباب ، ويقال الذبان لأنه كان أبخر الفم دامي اللثة فيقع الذباب عليها ([1]).

كما لقب بحمامة المسجد لملازمته له ، والأخبار متواترة في فقه عبد الملك وغزارة علمه ورجاحة عقله ، قال الشعبي : «ما جالست أحدا إلا وجدت لي الفضل عليه ، إلا عبد الملك بن مروان ما ذاكرته حديثا إلا زادني منه ولا شعرا إلا زادني فيه » ([2])، وروى عن عبد الله بن عمر قوله :«ولد الناس أبناء ،وولد مروان أبا»([3]).

قضى عبد الملك معظم حياته قبل أن يلي الخلافة في المدينة ينهل من علم علمائها وفقهائها ،ويتأدب بآدابهم، فكان من أكثرهم علما وأبرعهم أدبا وأحسنهم في شبيبته ديانة فقيل فيه:«إنه لآخذ بأربع ، تارك لأربع ،آخذ بأحسن الحديث إذا حدث ، وبأحسن الاستماع إذا حدث، وبأحسن البشر إذا لقي ، وبأيسر المؤونة إذا خولف، وكان تاركا لمحادثة اللئيم ومنازعة اللجوج، ومماراة السفيه ،ومصاحبة المأفون (ضعيف الرأي) ».

ولم يكن عبد الملك يغادر المدينة إلا للحج أو الغزو، فقد اشترك في غزو افريقية في عهد معاوية ،إذ روى خليفة بن خياط: «أن معاوية كتب إلى مروان وهو نائبه على المدينة أن أبعث ابنك عبد الملك إلى بلاد المغرب، مع معاوية بن حديج، فذكر من كفايته وغنائه ومجاهدته في تلك البلاد شيئا كثيرا »([4])، وكثيرا ما كان في غزو بلاد الروم ، وبعد موقعة الحرة ،واستيلاء ابن الزبير على الحجاز،أجلي بنو أمية عن المدينة إلى الشام ، وكان فيمن

[1] ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تح: مفيد محمد قميحة ، ج5، ط1، دار الكتب العلمي ، بيروت ، 1983 م، ص137.

[2] الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تح:محمد أسعد طلس،ج4،(د.ط)،دار المعارف ، مصر ،1962م،ص248.

[3] ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج3، ط1، الدار المتوسطة للنشر والتوزيع ، تونس ، 2005 م، ص62.

[4] المصدر نفسه ، ص63.

أجلي مروان بن الحكم وبنوه، واتفقت كلمة الأمويين وأشياعهم عليه، فبايعوه في الجابية ، وقد خلص له الأمر في الشام ومصر بعد جهود مضنية[1] كما سبق، وفي سنة خمس وستين أخذ مروان البيعة لوالديه عبد الملك وعبد العزيز، وذلك بعد عودة عمر بن سعيد من فلسطين ، وطرده ابن الزبير عنها، وقد تمت البيعة بتدبير حسان بن بجدل الكلبي ومن مباركة منه ، وتوفي مروان في رمضان من السنة نفسها، فجددت البيعة لعبد الملك ، وبذلك تمت له في البلاد التي كانت تحت سيطرة أبيه [2].

المطلب الثاني : مآثر عبد الملك بن مروان .

اختلف العلماء وأصحاب السير في السنة التي ضربت فيها النقود بالعربية، وفيمن ضربها، فقد تورد ابن كثير في ذلك روايات عدة : الأولى عن ابن جرير وفيها أن عبد الملك بن مروان أول من ضرب النقود بالعربية سنة 76هـ ،ثم يذكر عن الماوردي أنه اختلف في أول من ضربها بالعربية في الإسلام، وأورد رواية عن سعيد بن المسيب أن أول من ضربها عبد الملك بن مروان، وكانت الدراهم والدنانير رومية وكسروية. ويورد في

[1] الاصبهاني أبو الفرج ، الأغاني ، ج1،(د.ط) ، دار صعب ، بيروت ، ص13.

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص93.

تأريخ نقشها عن أبي الزناد سنة 74هـ، وأنه كان على أحد جوانبها(الله أحد) وعلى الآخر(الله الصمد) ،ثم يورد عن يحي بن النعمان الغفاري عن أبيه أن أول من ضربها مصعب بن الزبير في العراق عن أمر إخبار عبد الله سنة 76هـ ، وعليها (الملك) من جانب، و(الله) من الجانب الآخر ([1]).

أما الطبري فقد أورد أن نقش الدراهم والدنانير كان بأمر من عبد الملك ،وهو أول من ضربها على مثاقيل الجاهلية، وهي اثنان وعشرون قيراطا([2]).

وأما ابن الأثير فيقول: كان ضربها سنة 76هـ ، وإن عبد الملك هو أول من احدث ضربها ،وقد أورد رواية لتعليل ذلك وهي أن عبد الملك كتب في صدور الكتب إلى الروم :" قل هو الله احد وذكر النبي (ﷺ) مع التاريخ " فكتب إليه الروم: إنكم قد أحدثتم حدثا كذا وكذا ،فاتركوه ، وإلا أتاكم في دنانيرنا من ذكر نبيكم ما تكرهون ، فعظم ذلك عليه فأحضر خالد بن يزيد فاستشاره فيه ،فقال: حرم دنانيرهم ،واضرب للناس سكة فيها ذكر الله تعالى،فضرب الدنانير والدرهم، وضرب عاملة في العراق الحجاج «الدنانير والدراهم ونقش عليها قل هو الله أحد» ([3]).

وذكر اليعقوبي في تاريخه أن الدراهم والدنانير ضربت في أيام عبد الملك وأن الذي ضربها هو«الحجاج بن يوسف» ([4]).

كما يورد ابن عبد ربه إن «عبد الملك» هو أول من ضربها دون ذكر التاريخ لذلك ويذكر محمد الكتبي إن عبد الملك نقش الدراهم والدنانير سنة 76هـ ([5]).

---

[1] ابن كثير ، المصدر السابق ، ص15.

[2] الطبري ، المصدر السابق ، ص256.

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص202.

[4] اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج2،(د.ط)،دار صادر للطباعة والنشر،بيروت ،1960م، ص281.

[5] ابن عبد ربه ، المصدر السابق ، ص138.

والحقيقة إن عبد الملك بن مروان أول من ضربها لتواتر الروايات من جهة ، ولأن الرواية التي فيها ذكر مصعب بعيدة عن الحقيقة من جهة أخرى، فمصعب كان في شغل شاغل عن ضرب النقود، لأنه كان يحارب الخوارج والمختار وعبد الملك ،وانهماكه في هذه الحروف يعتبر سببا وجيها لرد الرواية التي تجعله أول من ضرب النقود .

وتم تعريب الدواوين، وبصفة خاصة ديوان الخراج الذي يعتبر من أهم دواوين الدولة ، والذي كان العمل فيه حكرا على غير العرب، فجاء عبد الملك ليصحح الوضع ، ويفتح المجال أمام العرب المسلمين للعمل في هذا الديوان، والتدريب على شؤون المال والاقتصاد،وكانت الدواوين قبل ذلك تكتب بالفارسية في العراق والنواحي الشرقية وبالرومية في الشام، وبالقبطية في مصر وحوليها من الرومية سليمان بن سعيد مولى خشين ،ومن الفارسية صالح بن عبد الرحمان مولى عتبة - امرأة من بني مرة- ([1]) .

وقد انشأ عبد الملك مصلحة البريد وجعلها منتظمة ، واستعمل لها الخيل ولنقل المسافرين والرسائل بين دمشق وعواصم الأمصار، وقد أنشئت هذه المصلحة في الأساس لسد حاجات موظفي الدولة ، وحمل مراسلاتهم ، وكان على مديري البريد فوق هذا أن يواصلوا الخليفة بالأنباء عن جميع الحوادث الخطيرة التي تجري في مناطقهم([2]).

في سنة 66هـ بدأ عبد الملك بناء قبة الصخرة والجامع الأقصى في القدس وانتهى منه في سنة 73هـ، وقد أراد صرف الناس عن الحج إلى مكة التي كانت بيد ابن الزبير فصار الناس يحجون إليها، وينحرون ويحلقون عند الصخرة ،ويطوفون بها وكان الزبير يشهر بعبد الملك بسبب هذا العمل.

كما قام عبد الملك بن مروان بمنع أهل الشام من الحج إلى مكة، لأن ابن الزبير كان يجبرهم على بيعته إذ حجوا، فضج الناس واحتجوا على ذلك ،وقالوا: تمنعنا من حج بيت الله

[1] المصدر نفسه ، ص139.

[2] طلس محمد اسعد ، المرجع السابق ، ص284.

الحرام ، وهو فرض من الله علينا، فقال لهم: هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم: أن رسول الله قال:لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام ومسجدي ومسجد بيت المقدس،وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام ، وهذه الصخرة التي يروي إن الرسول وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء تقوم مقام الكعبة، فبني على الصخرة قبة، وعلق ستور الديباج وأقام لها السدنة ([1]).

وكانت الكعبة المشرفة قد تصدعت في زمن زيد بن معاوية ،وبعد موته رممها عبد الله بن الزبير، بمقتضى الحديث الشريف الذي قاله النبي (ﷺ):« لولا أن قومك – وفي رواية بجاهلية- لنقضت الكعبة وأدخلت فيها الحجر، وجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربيا ولألصقتها بالأرض فإن قومك قصرت بهم النفقة، فلم يدخلوا فيها حجر، ولم يتمموها على قواعد إبراهيم ورفعوا بابها، ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ». فلما تمكن ابن الزبير بناها على هذا الوصف، ولما قضى الحجاج على ابن الزبير استأذن عبد الملك بإعادة البناء كما كان في الجاهلية، فسد الباب الغربي، وردم أسفل الباب الشرقي، حتى جعله مرتفعا كما كان، ولما بلغ عبد الملك الحديث النبوي عنها قال : « وددنا لو تركناه وما تولى من ذلك»([2]).

المبحث الثالث : عبد الملك بن مروان في سدة الخلافة .

المطلب الأول : سياسته الداخلية .

إن حزم عبد الملك وعلو همته رباطة جأشه ومعرفته في استعمال المال والسيف ، قد أسهمت في حسم الصراع ضد معارضيه لمصلحته، ناهيك عن اعتماده على رجال أشداء في الحرب،أوفياء له مثل «حسان بن بجدل الكلبي »،«قبيصة بن ذؤيب »،«روح بن زنباع»، و «الحجاج بن يوسف الثقفي »،وهذا الأخير اعتمد عليه في إرادة العراق والقسم

[1] اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج3 ،ط1،دار صادر للطباعة والنشر،بيروت ،1960م، ص7.

[2] المسعودي ، المصدر السابق ، ص42.

من الدولة وكان عند حسن ظن عبد الملك به وثقته فيه ،فأخلص كل الإخلاص للخليفة وبذل أقصى جهده في تثبيت أركان دولته ، كما اعتمد عليها أيضا على رجال بيته من إخوته مثل:«عبد العزيز»،« محمد» ،و«بشر» .... وغيرهم ([1]).

ولعل ما أورده المسعودي يصور شخصية عبد الملك السياسية ورباطة جأشه وصبره في قوله: «كان عبد الملك بن مروان سار في جيوش أهل الشام فنزل بطنان، ينتظر ما يكون من ابن زياد، فأتى خبر مقتله هو ومن كان معه ، وهزيمة الجيش بالليل، وأتاه في تلك الليلة مقتل حبيش بن دلجة ، وكان على جيش بالمدينة لحرب ابن الزبير، ثم جاء خبر دخول نائل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير وسير مصعب بن الزبير من المدينة إلى فلسطين ، ثم جاءه مسير ملك الروم لأبن فلقط ، ونزوله المصيصة يريد الشام ، ثم خبر دمشق ، وأن عبيدها وأوباشها و دعارها قد خرجوا على أهلها ونزلوا الجبل ، ثم أتاه أن من في السجن بدمشق ، فتحوا السجن وخرجوا منه مكابرة ، وأن خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك والبقاع، وغير ذلك من المفظعات في تلك الليلة ، فلم ير عبد الملك في ليلة قبلها أشد ضحكا ولا أحسن وجها ، ولا أبسط لسانا، ولا أثبت جنانا منه تلك الليلة تجلدا وسياسة للملوك ، فترك إظهار الفشل.... » ([2]).

لما رأى «عبد الملك بن مروان » أن «عمرو ابن سعيد » ينافسه على السلطة، قتله غيلة وغدرا ([3])، واستتب أمره في الشام فأعد عدة حربه ، وسار لمحاربة مصعب بن الزبير في العراق، فانفضوا من حوله وأسلوه لقمة صائغة لعبد الملك ، فاستولى على العراق،وبسط نفوذه على فارس ، ثم أرسل الحجاج إلى مكة فقضى على عبد الله بن الزبير ،وبذلك أعاد الوحدة السياسية للدولة الإسلامية سنة 73هـ ([4]).

---

[1] اليعقوبي ، المصدر السابق ،ج3 ، ص25.

[2] اليعقوبي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص341.

[3] كان هذا أول غدر في الإسلام ، اليعقوبي ، المصدر السابق ، ج3 ، ص39.

[4] المصدر نفسه ، ص42.

كما كان يرى أن الخوارج لن يهدؤوا ، ولابد من قائد مجرب محنك يكسر شوكتهم، ولا خبرة لأحد في ذلك مثل : «المهلب بن أبي صفوة » فولاه حربهم ([1]) ، وكان كثير التعهد لولاته وقواده ولم يكن يتوانى عن محاسبتهم، مهما كانت أقدارهم ،فحتى الحجاج نفسه لم يسلم من مساءلة عبد الملك له إذا قصر أو اخطأ فقد حدث أن أنس بن مالك كتب إلى عبد الملك يشكو الحجاج ، ويقول في كتابه: « لو أن رجلا خدم عيسى ابن مريم أو رآه، أو صحبه ، تعرفه النصارى ، أو تعرف مكانه لها جرت إليه ملوكهم ولنزل من قلوبهم المنزلة العظيمة ، ولعرفوا له ذلك ،ولو أن رجلا خدم موسى أو رآه ، تعرفه اليهود لفعلوا به من الخير والمحبة وغير ذلك ما استطاعوا، وإني خادم رسول الله (ﷺ) ،وصاحبه ورأيته، وأكلت معه ، ودخلت وخرجت وجاهدت معه أعداءه، وإن الحجاج قد أضر بي وفعل و فعل» ، قال: أخبرني من شهد عبد الملك يقرأ الكتاب وهو يبكي وبلغ به الغضب ما شاء الله ، ثم كتب إلى الحجاج بكتاب غليظ فجاء إلى الحجاج يقرأه ،ثم قال لحامل الكتاب: «انطلق بنا إليه نترضّاه »([2]). وكان عبد الملك يقظا وحريصا على نزاهة عماله واستقامة أخلاقهم وبعدهم عن الشبهات ، وقد استغل جهاز البريد في معرفة أخبار العمال والولاة أولا بأول ، والكشف عن أبي انحرف ومحاسبة صاحبه ، حيث روى المسعودي: أن عبد الملك قد بلغه أن عاملا من عماله قبل هدية فاستدعاه إليه ثم سأله : «أقبلت هدية منذ وليت ؟ قال : يا أمير المؤمنين بلادك عامرة وخراجك موفور ورعيتك على أفضل حال ، قال : أجبني فيما سألتك عنه ، أقبلت هدية منذ وليتك ؟ قال: نعم ، قال : إن كنت قبلت ولم تعوض انك للئيم ولئن كنت أنلت مهديها من غير مالك، أو استكفيته ما لم يكن مثله مستكفاه إنك لخائن جائر،وما أتيت أمرا لا تخلو فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع » ، وأمر بصرفه عن عمله([3]) .

[1] المبرد محمد بن يزيد ، الكامل في اللغة والأدب ، ج2، ط1 ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1997 م، ص128.

[2] ابن كثير ، المصدر السابق ، ص65.

[3] المسعودي ، المصدر السابق ، ص125.

كان عبد الملك يقول للرسول إذا قدم إليه: «أعفني من أربع وقل ما شئت ، ولا تطرني (من الإطراء) ولا تجبني فيما لا أسالك عنه ، ولا تكذبني ولا تحملني على الرعية أنهم في رقبتي ومعدلتي أحوج»([1]).

وسأله أحدهم الخلوة ، فقال لأصحابه: «إذا شئتم تنحوا، فلما تهيأ الرجل للكلام ، قال له: إياك وأن تمدحني ، فأنا أعرف بنفسي منك ، أو تكذبني فانه لا رأي لكذوب ، أو تسعى لأحد إلى وإن شئت أن أقيلك أقلتك ، قال أقلني فأقاله»([2]) (أعفاه من الأمر) .

ولما وافت سنة 85هـ هم عبد الملك بخلع عبد العزيز بن مروان (أخاه) من ولاية العهد فامتنع هذا الأخير،وجرت بينهما مكتبات كثيرة في ذلك،وقد استشار أصحابه ، فنهاه قبيصة بن ذؤيب عنه قائلا: «إنك باعث على نفسك صوت نعار »،وكان روح بن زنباع حرضه قائلا: «لو خلعته لما انتطح فيه عنزان »،وبات على نية خلعه، فاتاه البريد بنعيه في الليل، فاعترف لقبيصة -وكان هو الذي حمل إليه البريد- بما كان نوى، فقال قبيصة: «إن الرأي كله في الأناة، والعجلة فيها ما فيها » ،فقال عبد الملك: ربما كان في العجلة خير كثير ، رأيت أمر عمرو بن سعيد ، ألم تكن العجلة فيه خير من التأني؟ ([3]) ثم تمثل بأبيات احد الخوارج وجعل يرددها ويبكي:

يا أيهـا المتمنـي أن يكـون فتـى مثل ابن ليلى لقد خلى لك السبلا

إن ترحـل العيس كي تسعى مساعيـه يشفق عليك وتعمل دون ما عملا

لو سرت في الناس أقصاهـم وأقربهم في شقة الأرض حتى تحسر الإبلا

تبغي فتى فوق ظهر الأرض ما وجدوا مثل الذي غيبوا في بطنها رجـلا

[1] ابن كثير ، المصدر السابق ، ص66.

[2] الدينوري بن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج4 ،ط1 ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1996م ، ص23.

[3] جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج1، (د.ط) ،المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، مصر ، 1972م، ص175

أعددت ثلاث خلال قـد عرفـن له هل سب من احد أو سب أو بخــلا ([1])

بعد وفاة عبد العزيز قال عبد الملك: إن عبد العزيز رحمه الله قد مضى لسبيله ، ولابد للناس من قائم بالأمر من بعدي، قلت -والكلام لمحمد بن يزيد- يا أمير المؤمنين، سيد الناس وأرضاهم وأفضلهم الوليد بن عبد الملك. قال: صدقت وفقك الله ، فمن ترى بعده قلت: يا أمير المؤمنين ، أين تعدلها عن سليمان فتى العرب ؟ قال: وفقت أما أنا لو تركنا الوليد وإياها لجعلها في بنيه، أكتب عهدا للوليد وسليمان من بعده ، فكتب العهد للوليد وسليمان وبايعهما وجعلهما وليي عهد المسلمين ، وكتب بيعته لهما إلى البلدان ، فبايع الناس وامتنع « سعيد بن المسيب » بالمدينة فجلد ستين سوطا وحبس ([2]).

المطلب الثاني : سياسته الخارجية.

سار «عبد الملك بن مروان »على نهج «معاوية» في إدارة الدولة ومعالجة مشاكلها في الداخل،وكذا اتبعه المنهج نفسه في السياسة الخارجية ([3])، فقد كان العدو الرئيسي للدولة الإسلامية في عهد «عبد الملك »هو نفسه الذي كان في عهد «معاوية»،وهو الدولة البيزنطية، فقد رأى «عبد الملك» مهادنة هذه الدولة حتى يفرغ من مشاكله الداخلية،ولذلك وقع مع الإمبراطور البيزنطي «جستنيان الثاني» معاهدة ، قبل أن يدفع له بمقتضاها مالا ليضمن عدم إغارته على الحدود الإسلامية، منتهزا فرصة انشغاله في الداخل، يقول

[1] الأصبهاني أبو الفرج، المصدر السابق، ج2،ص153.

[2] الطبري ،المصدر السابق ،ج6،ص ص 415-416.

[3] لا نقصد أن عبد الملك مقلدا لمعاوية في كل شيء ، بل نقصد ترسمه للخطوط العامة لسياسته، وهذا لا يقلل من شأن عبد الملك،بل بالعكس فالحاكم الذكي هو الذي يستفيد من تجارب سابقه ، ومع هذا فقد كانت لعبد الملك شخصيته المستقلة الواضحة.

البلاذري: « وصالح عبد الملك طاغية الروم على مال يؤديه إليه لشغله عن محاربته وتخوف أن يخرج إلى الشام فيغلب عليه ، واقتدى في صلحه بمعاوية حين شغل بحرب أهل العراق، فان صالحه على أن يؤدي إليهم مالا »([1])، ولكن الإمبراطور البيزنطي ظن أنه كان بإمكانه أن يخدع «عبد الملك» دون أن ينقض المعاهدة نقضا مباشرا ، فاستخدم جماعة المردة المقيمين في جبل اللكام في الإغارة على حدود الدولة الإسلامية،لكن «عبد الملك» فوت عليه غرضه،وأظهر تفوقه عليه في مضمار السياسة ، وقرر أن يتخلص نهائيا من خطر هؤلاء المردة، الذين كانوا أشبه بعصابات تستخدمها الدولة البيزنطية كأداة لتنفيذ وتحقيق أهدافها في أراضي الدولة الإسلامية، فدخل في مفاوضات مع الإمبراطور وظفر منه بتعهد بإبعاد هؤلاء عن مناطق التخوم الإسلامية، وفعلا نقل الإمبراطور اثني عشر ألفا منهم إلى رومانيا ،ونقل بعضهم إلى تراقيا، وتشتت البقية الباقية منهم في أسيا

الصغرى ([2]) ، وكانت هذه الخطوة مكسبا مهما للدولة الإسلامية ، بقدر ما كان خسارة للدولة البيزنطية.

ولما تخلص «عبد الملك» من المشاكل الداخلية واصل ضغطه على الدولة البيزنطية عبر الحدود ،واضطر البيزنطيون أن يقفوا موقف الدفاع من جديد ، واستمرت هذه السياسة حتى وصلت في عهد والييه «الوليد» و «سليمان» وتماشيا مع هذه السياسة فقد أولى «عبد الملك» جبهة المغرب عناية كبيرة لأنه أدرك أن البيزنطيين قد استغلوا هذه الجبهة البعيدة عن مركز الدولة الإسلامية ، وانشغاله في الداخل، فأوقعوا بالمسلمين عدة هزائم ، فقد هزموا جيش «زهير بن قيس البلوي » وقتلوه فأرسل «عبد الملك »«حسان بن النعمان»الذي استطاع القضاء على النفوذ البيزنطي في شمال إفريقيا قضاء تاما ([3]).

[1] الكتبي محمد بن شاكر ، فوات الوفيات والذيل عليها ، ج2 ،(د.ط)، دار الثقافة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان 1974 م، ص403.

[2] العدوي إبراهيم أحمد ، الأمويون والبيزنطيون،(د.ط)، مكتبة النهضة ،القاهرة،1994م،ص205.

[3] عبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الحكم،فتوح مصر وأخبارها (د.ط)،مكتبة المثنى للنشر ،بغداد،(د.ت)،ص135.

أما في الجهة الشرقية – في الجنوب نحو إقليم السند وفي الشمال حيث إقليم ما وراء النهر – فما إن فرغ «عبد الملك» من المشاكل الداخلية ، حتى بدأت الغزوات تنطبق إلى هذه الجبهات ، تمهيدات للانطلاقة الكبرى من الفتوحات التي ستبدأ في عهد ابنه وخليفته الوليد، والخلاصة أن «عبد الملك» كما كان بارعا في إدارة الدولة في الداخل ، فقد كان بارعا كذلك في معالجة المشاكل في الخارج ، فصان حدود الدولة وأبعد عنها خطر أعدائها ، وتركها لأبنائه ، موطدة الأركان ، سليمة البنيان .

لما شارف لما شارف «عبد الملك بن مروان» على نهايته ، قيل له -وهو شديد المرض – كيف تجدك ؟ قال: أجدني كما قال تعالى : (و لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم)([1]) الآية 94 من سورة الأنعام .

ولما احتضر سمع غسالا يغسل الثياب فقال : ما هذا ؟ فقالوا : غسال، فقال: يا ليتني كنت غسالا اكسب ما أعيش به يوما بيوم ولم آل الخلافة ، ثم تمثل :

لعمري لقد عمرت في الملك برهة ودانت لي الدنيا برقع البواتر

وأعطيت حمر المال والحكم والنهي ولى سلمت كل الملوك الجبابر

فأضحت الذي قد كان مما يسرني كحكم مضى في المزمنات الغوابر

فيا ليتني لم اعن بالملك ليلة ولم أسعى في لذات عيش نواضر

قيل أن معاوية انشد هذه الأبيات عند وفاته. ([2])

وقيل : «لما حضره الموت، جعل يندب ويندم ، ويضرب بيده على ويضرب بيده على رأسه ،ويقول وددت إني كسبت قوتي بيوم واشتغلت بعبادة ربي عز وجل وطاعته »، ثم

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص250.

[2] ابن كثير ، المصدر السابق ، ص.67

3 ابن الأثير، المصدر السابق ، ص 251.

دعا بنيه فأوصاهم ، ثم قال: «الحمد لله الذي لا يسأل احد من خلفه كبيرا أو صغيرا »،ثم أنشد : فهـل مـن خالـد إمـا هلكنـا وهـل بالمـوت للباقـين غـار

وقال: أرفعوني، فرفعوه حتى شم الهواء، وقال: « يا دنيا ما أطيبك ، إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لحقير، وإنا كنا بك لفي غرور»، ثم تمثل :

إن تنـاقش يكـن عذابـك يا رب عذابـا لا طـوق لـي بالعـذاب

أو تجـاوز فأنت رب صفـوح عـن مسـيء ذنوبـه كالتـراب [3]

قيل أيضا إن عبد الملك نظر إلى الوليد يبكي عليه عند رأسه، فقال: «يا هذا أتحن حنين الجارية والأمه ؟ إذا أنا مت فضعني في قبري وشمر واتزر والبس للناس جلد النمر وضع الأمور عند أقرانها، واحذر قريشا ، وضع سيفك على عاتقك ، فمن أبدى ذات نفسه لك، فاضرب عنقه ومن سكت مات بدائه »، ثم اقبل عليه جميع ولده ، فقال : « يا وليد اتق الله فيما استخلفك فيه ، وأحفظ وصيتي ، وانظر إلى أخي معاوية ،فصل رحمه واحفظني فيه،وأنظر إلى أخي محمد فأمره على الجزيرة ،ولا تعزله عنها،وأنظر إلى ابن عمنا علي بن عباس ، فإنه قد انقطع إلينا بمودته ونصيحته وله نسب وحق فصل رحمه واعرف حقه وانظر إلى الحجاج بن يوسف فأكرمه فانه هو الذي مهد لك البلاد، وقهر الأعداء،وخلص لكم الملك ، وشتت الخوارج ». سكت برهة ثم قال : «وأنهاك وإخوتك عن الفرقة، وكونوا أولاد أم واحدة، وكونوا في الحرب أحرار وللمعروف منارا ، فإن الحرب لم تدن منية قبل وقتها ، وإن المعروف يشيد ذكر صاحبه ،ويميل القلوب للمحبة ، ويذلل الألسنة بالذكر الجميل ولله در القائل :

إن الأمور إذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنق وبطش مفند

عزت ولم تكسر وإن هي بددت فالكسـر والتوهين للمتبدد

ثم قال : «إذا أنا مت ، فادع الناس إلى بيعتك، فمن أبى فالسيف، وعليك بالإحسان إلى أخواتك ، فأحبهن وأكرمهن إلى فاطمة»، ثم قال:«اللهم أحفظني فيها» ([1]).

وكان عبد الملك يقول :«إني أخاف الموت في شهر رمضان، فيه ولدت، وفيه فطمت وفيه جمعت القرآن ، وفيه بايع الناس لي ، فمات في شوال حين امن الموت في نفسه » وكان قد مرض مرضه،فقال بعض الأطباء:إن شرب الماء هلك فاشتد عطشه، فقال : « يا وليد اسقني ماء» فامتنع الوليد ، فقال لأبنته فاطمة لتسقيه فمنعها الوليد فقال له : «لتدعنها أو لأخلعنك»، فقال الوليد : «لم يبق بعد هذا شيء » فسقته ، فمات([2]) .كانت وفاته في النصف من شوال سنة 86هـ([3]) ،ولما توفي دفن خارج باب الجابية .

[1] المسعودي ، المصدر السابق ، ص100.

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص251.

[3] ابن سعد ، المصدر السابق ، ص235.

الفصل الثاني : الأحزاب والقوى المعارضة لبني أمية في عهد عبد الملك بن مروان

المبحث الأول : الحزب الزبيري

المطلب الأول : دولة عبد الله بن الزبير

1) **عبد الله بن الزبير**: هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العز ي بن قصي بن كلاب بن مرة كان يكنى بأمير المؤمنين ، أبو بكر ، أبو خبيب ، القرشي الأسدي المكي ، احد الإعلام [1] ، أمه هي أسماء بنت عبد الله بن أبي قحافة بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة [2] ، كانت من أوائل المسلمات حيث أسلمت وأختها عائشة وهي يومئذ صغيرة[3].

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها حملت بعبد الله بن الزبير في مكة

قالت:«فخرجت وأنا متم فأتيت المدينة فنزلت قباء، فولدت بقباء ، ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوضعته في حجره ، ثم دعا بتمرة ، فمضغها ثم تفل في فيه ، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله (ﷺ)، ثم حنكه بالتمرة ، ثم دعا له ، فبرَك عليه »، وكان أول مولود ولد في الإسلام ، ففرحو به فرحا شديدا لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم [4]. جاء يبايع النبي (ﷺ) وهو ابن سبع أو ابن ثماني سنين بأمر من والده (رضي الله عنه) بعد ولادته طاف به الصديق (رضي الله عنه) بالمدينة ليشتهر أمر ميلاده على خلاف ما زعمت اليهود ، وكان ابن الزبير ملازما للدخول على رسول الله (ﷺ) لكونه من آله ، فكان يتردد إلى بيت خالته عائشة زوج الرسول (ﷺ)[5] .

ولم يرد أي خبر عن اشتراك عبد الله بن الزبير في الحروب والغزوات رغم حضوره مع والده غزوة الأحزاب وفتح مكة ، فقد كان في مقتبل العمر ولم يتجاوز عمره عند وفاة

[1] الذهبي ، المصدر السابق ، ص363.
[2] ابن سعد ، المصدر السابق ، ص119.
[3] الصلابي علي محمد ، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار ، ج1 ، ط1 ، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة ، 2005م ، ص587.
[4] المرجع نفسه ، ص586.
[5] الذهبي ، المصدر السابق ، ص364.

الرسول (ﷺ) إحدى عشر سنة ، وكان الرسول (ﷺ) لا يجيز احد من الغلمان لم يبلغ الخامسة عشر ، وأول ما يرد من أخبار تتعلق بخروجه مع الجيوش ، ومرافقته لوالده في تحرير بلاد الشام وحضوره معركة اليرموك إذ يقول عبد الله : « كنت مع أبي عام اليرموك ، فلما تعبأ المسلمون للقتال لبس الزبير لأمته ثم جلس على فرسه ثم قال لموليين له: احبسا عبد الله بن الزبير معكما في الرحل ، فانه غلام صغير».

وبعد انتهاء القتال شارك عبد الله في علاج الجرحى ، وان لم يشارك في القتال لصغر سنه ، فانه ألف القتال والعراك وصليل السيوف من ذ نشأته مما زاد في شجاعته وخبرته العسكرية [1] .

في عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) كان عبد الله بن الزبير لا يزال صبيا إلا انه عرف بشجاعته ، حيث يروى «أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مارا وعبد الله يلعب مع الصبيان ، ففروا ووقف ابن الزبير فقال له عمر : مالك لم تفر معهم ؟ فقال : لم أجرم فأخافك ، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك » ، كما يروى : « انه كان يلعب ذات يوم مع الصبيان ، فمر بهم رجل فصاح عليهم ففروا ، ومشى ابن الزبير وقال: يا صبيان اجعلوني أميركم وشدوا بنا عليه ، ففعلوا »[2]

أما في عهد عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فقد حدث أن انقطع خبر المسلمين في افريقية، فسير إليهم عبد الله بن الزبير في جماعة ليأتيهم بأخبارهم، فسار ووصل إليهم ، وأقام معهم ورأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمين ضد الروم كل يوم ، فقال لعبد الله بن سعد (قائد المسلمين): «إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة وبلاد هي لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين ، ورأيت أن نترك غدا جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ، ونقاتل نحن الروم ...، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ، ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال ونقصدهم على غرة ، فلعل الله أن ينصرنا عليهم ... » ، فكان لهم ذلك وتمكنوا من الانتصار على الروم.

[1] لحام ماجد ، عبد الله بن الزبير ، ط1 ، دار القلم ، دمشق ، 1995م ، ص41 .
[2] ابن الأثير ، ج2 ، ص 75 .

فأرسله عبد الله بن سعد إلى عثمان (ﷺ) يبشره بفتح افريقية [1]، قال ابن كثير: فكان هذا أول موقف اشتهر فيه أمر عبد الله بن الزبير (ﷺ) [2] .

كما كان عبد الله بن الزبير من الذين دافعوا عن عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم الدار ومما يدل على أهمية الذي كان يقوم به ابن الزبير في الذود عن عثمان، ما ذكرته الروايات من أن عثمان أمر ابن الزبير يوم الدار وقال : « من كانت لي عليه طاعة فليطع عبد الله بن الزبير»، وفي رواية : انه أمره أن يصلي بأهل داره فترة الحصار ، وكان ابن الزبير يصلي بهم في صحن الدار[3] .

وكان عبد الله بن الزبير ممن شارك في الفتوحات الكثيرة أيام معاوية (ﷺ) حيث كان بمثابة الساعد الأيمن لمعاوية بن حديج ، وقد بعثه هذا الأخير إلى سوسة فتمكن من فتحها [4] ، كما كان كذلك في جيش يزيد بن معاوية الذي سار نحو القسطنطينية ، وكان في ذلك الجيش عدد من الصحابة منهم : أبو أيوب الأنصاري ، والحسن بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وابن عباس[5] .

2) **بيعة ابن الزبير بالخلافة** : بعد موت يزيد بن معاوية لم يكن هناك من خليفة ، وإذا كان يزيد قد أوصى لأبنه معاوية فان هذا لا يكفي للبيعة ، إذ لا بيعة دون شورى ، إضافة إلى أن الذين قد بايعوا معاوية بن يزيد لا يزيدون على دمشق وما حولها واعيان بني كلب . هذا مع أن معاوية بن يزيد لم يعش طويلا ، وترك الأمر شورى ، ولم يستخلف أحدا ولم يوصي إلى احد ، وكان عبد الله بن الزبير قد بويع له في الحجاز ، وفي العراق وما يتبعه إلى أقصى مشارق ديار الإسلام ، وفي مصر وما يتبعها إلى أقصى بلاد المغرب، وبايعت الشام أيضا إلا بعض جهات منها، ففي دمشق بايع الضحاك بن قيس الفهري لابن الزبير ، وفي حمص بايع النعمان بن بشير ، وفي قنسرين زفر بن الحارث الكلابي ، وفي فلسطين

[1] ابن الأثير ، ج2 ، ص236 .
[2] ابن كثير ، المصدر السابق،ج7، ص157.
[3] ابن سعد ، المصدر السابق ، ص70.
[4] الصلابي علي محمد ، المرجع السابق ، ص593.
[5] شاكر محمود ، عبد الله بن الزبير ، ط1 ، المكتب الإسلامي ، 1998 م، ص43.

بايع نائل بن قيس ، ولم يكن رافضا بيعة ابن الزبير في الشام إلا منطقة البلقاء وفيها حسان بن مالك بن بجدل الكلبي [1].

وهكذا تمت البيعة لعبد الله بن الزبير ، وعين نوابه على الأقاليم ، وقد كان من الطبيعي أن يكون الحجاز أول المناطق خضوعا و ولاء لبيعة ابن الزبير، لكونه مركز المعارضة ضد بني أمية ، وقد روي أن من الأوائل الذين سارعوا إلى مبايعة ابن الزبير هم : عبد الله بن مطيع العدوي ، عبد الله بن رضوان بن أمية الجمحي ، الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة ، عبيد بن عمر ، عبيد الله بن علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن جعفر [2] .

وكان هناك بعض العناصر الذين امتنعوا عن بيعة ابن الزبير وعلى رأسهم ثلاث شخصيات لها مكانتها وتأثيرها لاسيما في الحجاز وهم : عبد الله بن عمر بن الخطاب ، ابن عباس ، ومحمد بن الحنفية ، وتكاد تجمع المصادر أن أيا من هؤلاء لم يبايع ابن الزبير طيلة حياته [3] .

ولقد أدت وفاة يزيد بن معاوية إلى اضطراب الوضع في العراق ، ونشوب النزاع بين قبائله المختلفة حول السلطة وهرب عبيد الله بن زياد إلى الشام ، وخرج الخوارج قبل هروبه من السجن و بدؤوا بإشاعة الفوضى والفساد وبعد فتن وقتال اتفقت القبائل بالبصرة على أن يتولى عبد الله بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب الأمر ، ثم شرع ابن الزبير في تعيين نوابه بعد بيعة أهل البصرة له إلى أن استقر على ولايتها أخوه مصعب ، وعين أهل الكوفة عامر بن مسعود بن خلف القرشي ، وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير فأقره ، وهذا التصرف يعد في حقيقته إقرارا من أهل الكوفة بخلافة ابن الزبير [4].

أما في بلاد الشام فان دعوة ابن الزبير لم تظهر إلا بعد موت معاوية بن يزيد حيث انقسم أهلها إلى أمويين وزبيريين ، يقول عبد الله بن عبد ربه : « فلما مات معاوية بن يزيد بايع

---

[1] الذهبي ، المصدر السابق ، ص373 .
[2] البلاذري احمد بن يحي بن جابر ، انساب الأشراف ، ج1 ، طبعة بيروت ، 1979 م، ص352 .
[3] الخراشي عبد الله عثمان ، عبد الله بن الزبير ، رسالة ماجستير ، جامعة الملك سعود ، كلية الآداب ، 1988م، ص119.
[4] الصلابي علي محمد ، المرجع السابق ، ص604 .

أهل الشام كلهم ابن الزبير إلا أهل الأردن ، وبايع أهل مصر أيضا ابن الزبير ، واستخلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهري على أهل الشام »[1] .

المطلب الثاني : نهاية عبد الله بن الزبير

بعد أن استعاد ابن الزبير نفوذه على العراق أصبحت الموجهة محتومة بينه وبين عبد الملك ، الذي قرر أن يقود المعركة بنفسه بعد أن شاور خاصته في ذلك ، فأشار عليه عمه « يحي بن الحكم» أن يقنع بالشام ، ويترك ابن الزبير [2] ، ومنهم من أشار عليه أن يقيم في

[1] ابن عبد ربه عبد الله ، المصدر السابق ، ص145 .
[2] الريس ضياء الدين ، المرجع السابق ، ص 210 .

الشام ، ويرسل واحد من أهله ليقود الجيش ، كما أشاروا عليه بان يسير بنفسه فمال هو إلى هذا الرأي ، وقال : « انه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشي له رأي ، ولعلي ابعث من له شجاعة ولا رأي له ، واني بصير بالحرب ، شجاع بالسيف إن احتجت إليه ، ومصعب شجاع من بيت شجاعة ولكنه لا علم له بالحرب ... ومعه من يخالفه ، ومعي من ينصح لي»[1] .

عزم عبد الملك إذن على السير إلى العراق لانتزاعه من ابن الزبير ، وكان ذلك في سنة 71هـ، ولعله أخّر الصدام مع ابن الزبير إلى هذا الوقت متعمدا، فهو لم يشأ أن يسير إلى العراق إلا بعد أن يوطد دعائم حكمه في الشام ، فقضى هذه السنين في تحقيق هذا الهدف ، فقد حل مشاكله مع زفر بن الحارث الكلابي الذي كان معتصما في قرقيسياء [2]، مهددا بذلك إقليم الجزيرة كله ، وقد عالج عبد الملك مشكلة زفر بالحكمة والسياسة ، واصطلح معه ، وأنهى المسألة التي استمرت حوالي سبع سنين وبذلك احكم سيطرته على إقليم الجزيرة [3]، ثم تخلص من منافسه الخطير وهو عمر بن سعيد الأشدق [4].

1. الاستيلاء على العراق :

سارع عبد الملك إلى العراق بجيشه وجعل على مقدمته أخاه محمد بن مروان حتى وصل إلى مسكن على مقربة من شاطئ دجلة في شمال العراق [5] .

لما بلغ مصعب مسير عبد الملك فسار هو أيضا بجيشه وعلى مقدمته إبراهيم بن الاشتر (كان على ولاة الموصل) ، ونزل باجميرا (تقع بين الكوفة و واسط) [1]،واخذ عبد الملك

---

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ،ج3،ص51 .
[2] المصدر نفسه ، ص59 .
[3] عبد اللطيف عبد الشافي محمد ، العالم الاسلامي في العصر الاموي ، ط3 ، دار الاتحاد التعاوني للطباعة ، مصر ، 1996 م، ص501 .
[4] الطبري ، المصدر السابق ، ج6 ، ص140 .
[5] الريس ضياء الدين ، المرجع السابق ، ص 211.

يكاتب زعماء أهل العراق من جيش مصعب يعدهم ويمنيهم ، وكان إبراهيم بن الاشتر منهم ، فاخذ هذا الأخير الكتاب إلى مصعب فقال له : « ما فيه ؟ قال : ما قرأته ، فقرأه مصعب فإذا هو يدعوه إلى نفسه ويجعل له ولاية العراق ، فقال لمصعب: انه والله ما كان من احد آيس منه مني ، ولقد كتب إلى أصحابك كلهم مثل الذي كتب إلي فاطعني فيهم فاضرب أعناقهم ، قال ا ذا لا تناصحنا عشائرهم ، قال: فأوقرهم حديدا ... ووكل بهم من إن غلبت ضرب أعناقهم ، وإن غلبت مننت بهم على عشائرهم ، فقال : يا أبا النعمان إني لفي شغل عن ذلك ، يرحم الله أبا بحر (الأحنف بن قيس) انه كان ليحذرني غدر أهل العراق كأنه ينظر إلى ما نحن فيه »[2] وهذا ليس غريبا على أهل العراق ، فلهم في الغدر وتغيير المواقف سجل حافل ، بل لقد صرح عبد الملك بان كتبهم كانت تأتيه يدعونه إليهم قبل أن يكتب هو إليهم [3] .

ولم يكن هذا خافيا في معسكر مصعب ، فعندما استدعى المهلب بن أبي صفرة يستشيره، قال له : « أعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم ، فلا تبعدني عنك » فقال له مصعب : « إن أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى أجعلك على قتال

الخوارج ، وهم قد بلغوا سوق الأهواز ، وأنا اكره إذا سار عبد الملك إلي ألا أسير إليه ، فاكفني هذا الثغر»[4] .

في الوقت الذي كان عبد الملك يكاتب فيه زعماء أهل العراق من قواد مصعب والذين قبلوا التخلي عنه والانضمام إليه [5]، كان حريصا على ألا يقاتل مصعبا للمودة والصداقة القديمة التي كانت بينهما فأرسل إليه رجلا من كلب ، قال له : « أقرئ ابن أختك السلام

---

[1] الطبري ، المصدر السابق ، ج6 ، ص157 .
[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج3 ،ص52 .
[3] المصدر نفسه ، ص52 .
[4] عبد اللطيف عبد الشافي محمد ، العالم الإسلامي في العصر الأموي ، (41هـ -132هـ/661م-750م)، المرجع السابق ، ص429 .
[5] ذكر الطبري من هؤلاء حجار بن ابجر ، والغضبان بن القبعثري ، عتاب بن ورقاء ، وقطن بن عبد الله ألحارثي ، محمد بن عبد الرحمان بن سعيد بن قيس ، وزحر بن قيس ، ومحمد بن عمير ، المصدر السابق ، ج6، ص 156.

وقل له يدع دعاءه إلى أخيه ، وادع دعائي إلى نفسي ، ويجعل الأمر شورى ، فقال له مصعب: قل له السيف بيننا »[1] .

ثم حاول عبد الملك محاولة أخرى ، فأرسل إليه أخاه محمدا ليقول له: « إن ابن عمك يعطيك الأمان ، فقال مصعب: إن مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالبا أو مغلوبا »[2] ، ثم دارت المعركة واشتد القتال . وجعل مصعب يمد إبراهيم ، فوجه عبد الملك عبد الله بن يزيد إلى أخيه محمد ، وأمد مصعب أيضا إبراهيم بعتاب بن ورقاء ، فساء ذلك إبراهيم وقال : « قد قلت له لا تمدني بعتاب وضربائه ، وإنا لله وإنا إليه راجعون »، فانهزم عتاب بالناس فلما انهزم صبر ابن الاشتر فقتل [3]. فكان مقتله خسارة كبرى لمصعب ، لأنه فوق شجاعته كان مخلصا له غاية الإخلاص ، وتقدم أهل الشام فقاتلهم مصعب ، وقال لأحد القواد : « قدم خيلك ، فقال : اكره أن تقتل عشيرتي في غير شيء ، فقال لآخر مثل ذلك فلم يتقدم ، فقال لثالث ، فقال: ما فعل احد هذا ، فافعله »[4] لذلك لما اشتد القتال على مصعب وتحرج موقفه صاح : « يا إبراهيم ولا إبراهيم لي اليوم »[5] وهكذا تخلى أهل العراق عن مصعب ، وبدت الهزيمة في جانبه ولكنه ظل يقاتل في شجاعة وبسالة حتى أثخنته الجراح ، وأخيرا قتله زياد بن ظبيان وكان مقتله في المكان الذي دارت فيه المعركة على قصر دجيل عند دير الجاثليق ، في جمادي الثانية سنة 72هـ [6] .

لما بلغ عبد الملك بن مروان مقتل مصعب بن الزبير قال : « واروه فقد ـ والله ـ كانت الحرمة بيننا قديمة ، ولكن هذا الملك عقيم »[7] ، وبمقتل مصعب انتهت المعركة فدخل عبد عبد الملك الكوفة ، وبايعه أهلها ، وعاد العراق إلى حظيرة الدولة الأموية وعين عبد الملك أخاه بشرا واليا عليها ، وقبل أن يغادرها أعد جيشا للقضاء على ابن الزبير بمكة .

---

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج3 ، ص52 .
[2] الطبري ، المصدر السابق ، ج6 ، ص159 .
[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج3 ، ص53 .
[4] الريس ضياء الدين ، المرجع السابق ، ص 213 .
[5] الطبري ، المصدر السابق ، ج7 ، ص45 .
[6] الليثي خليفة بن خياط بن أبي هبيرة ، تاريخ خليفة بن خياط ، تح : أكرم ضياء العمري ، ط2 ، دار القلم ، بيروت ، 1977 م، ص268 .
[7] الطبري ، المصدر السابق ، ج7 ، ص47 .

2- الاستيلاء على الحجاز :

كانت المناوشات مستمرة بين ابن الزبير وعبد الملك بن مروان على الجبهة الحجازية ومن أهم الحملات التي شنها الطرفان نذكر :

أ -**حملة حبيش بن دلجة القيني** : تكاد تجمع الروايات على أن مروان بن الحكم هو الذي أرسل هذه الحملة إلى الحجاز ، وذلك بعد مقدمه من مصر [1] ، والذي يظهر أن هذه الحملة أرسلت في أواخر عهد مروان بن الحكم ، حيث توفي مروان قبل أن تكمل مهمتها، الأمر الذي جعل بعض المؤرخين يذكرون أن عبد الملك بن مروان هو الذي أرسلها، وكان عدد أفراد هذه الحملة يتراوح بين 6400 و7000 رجل[2]،واستطاع عبد الله بن الزبير أن يتغلب على هذا الجيش ، فقد أرسل الحارث بن أبي ربيعة – وكان واليا على البصرة – جيشا بقيادة الحنتف بن السجف التميمي، لمواجهة جيش حبيش بن دلجة ومن جهته أرسل بن الزبير جيشا آخرا بقيادة عباس بن سهل بن سعد الأنصاري ليلتقي بجيش الحنتف ، ويتحدا للقضاء على جيش حبيش وهذا ما تم فعلا [3] .

ب-حملة نائل بن قيس الجذامي : أرسل ابن الزبير نائلا بحملة بعد وفاة الحنتف بن السجف بوادي القرى، وأمره أن يعبر إلى نواحي الشام،وفي رواية أخرى أن ابن الزبير بعث نائلا بعد وفاة مروان وأمره أن يأتي فلسطين [4]،وعلى أية حال فكلا الروايتين تتفقان تتفقان على إن عبد الملك استطاع أن يقضي على نائل بن قيس بأجنادين [5]، وقد قتل هو وأصحابه بفلسطين سنة 66هـ .

ج-حملة عروة بن أنيف : بعث عبد الملك بن أنيف في ستة آلاف إلى المدينة وأمرهم ألا ينزلوا على احد ، ولا يدخلوا إلى المدينة إلا لحاجة ضرورية أو يعسكروا بالعرصة [6].
وكان عروة يدخل المدينة ويصلي الجمعة بالناس ثم يعود إلى معسكره ومكث على هذا

---

[1] الصلابي علي محمد ، المرجع السابق ، ص640 .
[2] الخراشي عبد الله عثمان ، المرجع السابق ، ص181 .
[3] الطبري ، المصدر السابق ، ج6 ، ص553 .
[4] البلاذري احمد بن يحي بن جابر ، المصدر السابق، ج5، ص 152 .
[5] الحموي ياقوت ، معجم البلدان ، ج1 ، دار صادر، بيروت ، 1979 م، ص103(أجنادين من نواحي فلسطين) .
[6] المصدر نفسه ، ص 104 .

الوضع شهرا ، ولم تحدث أي مواجهة ، عندها أمر عبد الملك هذا الجيش بالعودة إلى الشام فرجع [1].

د-حملة عبد الملك بن الحارث بن الحكم : أرسل عبد الملك بن مروان هذه الحملة والتي قوامها أربعة آلاف إلى المدينة ، وكانت مهمتها الحفاظ على المنطقة مابين الشام والمدينة ، فعسكر عبد الملك بن الحارث بوادي القرى ، ومن هناك أرسل فرقة تظم خمسمائة رجل بقيادة أبي القمقام إلى سليمان بن خالد عامل ابن الزبير على خيبر للقضاء عليه ، وقد حاول هذا الأخير الهرب إلا أنهم أدركوه وقتلوه ولم يستطع ابن الزبير عمل شيء حيال ذلك سوى عزل الحارث بن حطاب وتوليه جابر بن الأسود مكانه وأرسل هذا الأخير من جهته حملة بقيادة أبي بكر بن قيس إلى أبي القمقام بخيبر واستطاع أبو بكر أن يلحق بخصمه الهزيمة [2].

هـ-حملة طارق بن عمرو : كانت هذه الحملة آخر حملة وجهها عبد الملك بن مروان اتجاه الحجاز وكان الهدف منها أن يسيطر فيما بين أيلة ووادي القرى ، ويكون مددا لمن يحتاج إليه من عمال عبد الملك ، وفي الوقت نفسه تكون سدا أمام تحركات ابن الزبير وطلب هذا الأخير من واليه على البصرة إرسال قوات لحماية المدينة ، فأرسل إليه ألفي رجل بقيادة ابن رواس ، واستطاعت تلك القوات حماية المدينة ، ولكن ما لبث ابن الزبير أن أمر ابن رواس بالمسير إلى طارق بن عمرو ، وكانت نتيجة الصدام انتصار طارق بن عمرو وعاد إلى أم القرى ملتزما بالمهمة التي أوكلها له عبد الملك [3] .

كان انتصار عبد الملك بن مروان على مصعب ابن الزبير في معركة دير الجاثليق إيذانا بانتهاء دولة عبد الله بن الزبير ، فقد استقرت له الأمور في جميع الأمصار الإسلامية ، وانحصرت دولة عبد الله بن الزبير في الحجاز ، ولم يكن في استطاعته الصمود لافتقاره إلى المال والرجال كما أن مقتل أخيه مصعب قد أصابه بالإحباط ، ولكنه لم يلق رايته ،

---

[1] الخراشي عبد الله عثمان ، المرجع السابق ، ص185 .
[2] المرجع نفسه ، ص186 .
[3] الصلابي علي محمد ، المرجع السابق ، ص641 .

وظل يقاوم حتى النهاية ، ولم يضيع عبد الملك بن مروان الوقت بعد انتصاره على مصعب ، وقرر أن يقضي نهائيا على دولة ابن الزبير[1].

وبينما كان عبد الملك يشاور رجاله في شخص يتولى هذه المهمة ، قام إليه الحجاج بن يوسف الثقفي ، فقال له : « ابعثني إليه يا أمير المؤمنين ، فاني رأيت في المنام كأني ذبحته ، وجلست على صدره وسلخته ، فقال: أنت له ، فوجهه في عشرين ألفا من أهل الشام وغيرهم»[2].

وتوجه الحجاج إلى الحجاز ونزل بالطائف – وهي بلدته الأولى لأنه من ثقيف –أولا ، ثم اخذ يرسل بعض الفرق من جنوده إلى قتال ابن الزبير ، ودارت بين الفريقين عدة اشتباكات في عرفه كانت دائما لمصلحة الحجاج [3] ، وأمر عبد الملك طارق بن عمرو الذي كان مرابطا بوادي القرى – أن ينضم إلى جيش الحجاج ، فتوجه طارق إليه وكان معه خمسة ألاف رجل ، [4]،وزحفا إلى مكة .

وفي محاولة لأنهاك ابن الزبير قام الحجاج بفرض الحصار على مكة في الأول من ذي القعدة عام 72هـ ، ويروي ابن حزم أن عبد الملك بن مروان كان يسهم في فرض هذا الحصار ، فقد أوكل إلى خالد بن ربيعة مهمة قطع الميرة الخاصة بالمؤن عن ابن الزبير وأهل مكة [5]، وقد اثر هذا الحصار على ابن الزبير وأصابت الناس مجاعة شديدة حتى إن ابن الزبير اضطر إلى ذبح فرسه ليطعم أصحابه [6] .

وقد ترتب على تردي الأحوال داخل مكة ، إن بدأ التخاذل يدب بين أنصار ابن الزبير وبدؤوا ينسحبون واحدا تلو الأخر، ومما شجع هؤلاء على التخاذل إعطاء الحجاج الأمان لكل من كف عن القتال وانسحب من جيش ابن الزبير .

---

[1] عبد اللطيف عبد الشافي محمد ، العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص503 .
[2] اليعقوبي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص266 .
[3] عبد اللطيف عبد الشافي محمد ، العالم الإسلامي في العصر الأموي(41هـ -132هـ/661م -750م) ، المرجع السابق ، ص431.
[4] الصلابي علي محمد ، المرجع السابق ، ص642 .
[5] ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، تح: عبد السلام محمد هارون ، (د.ط) ، القاهرة ، (د.ت) ، ص244 .
[6] البلاذري احمد بن يحي بن جابر ، المصدر السابق ، ج5 ، ص361 .

أراد الحجاج بن يوسف أن ينهي أمر ابن الزبير فكتب إلى عبد الملك بن مروان يطلب منه الإذن بقتاله فأجابه عبد الملك بقوله : « افعل ما ترى »[1]. وتوجه الحجاج بجميع جيشه إلى مكة ونصب المنجنيق على جبالها ، فلما أهل ذو الحجة بدأ يضرب ابن الزبير داخل الحرم ضربا متواصلا ، وفي الوقت ذاته كانت بقية جيشه يقاتلون البقية الباقية مع ابن الزبير[2] .

كانت وفود الحج قد جاءت إلى مكة من كافة الأقطار الإسلامية ، وقد منعهم من الطواف حول البيت ما يتعرض إليه الطائفون من خطر المنجنيق ، فتوسط بعض أعيان مكة لدى الحجاج طالبين إليه أن يكف عن استعمال المنجنيق فأجابهم : « والله إني لكاره لما ترون ولكن ماذا اصنع وقد لجأ هذا إلى البيت ؟ » ولما كان في ذلك تعطيل لركن من أركان الحج فقد تدخل في الأمر عبد الله بن عمر وكتب إلى الحجاج يقول له : « اتق الله فانك في شهر حرام وبلد حرام وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرا»[3] .

فأرسل الحجاج إلى طارق بن عمرو بان يكف عن استعماله حتى ينتهي الناس من الحج ، وبعدما انتهى موسم الحج نادي الحجاج في الناس بالانصراف إلى البلاد وان القتال سيستأنف ضد ابن الزبير [4].

وبالفعل بدأ يضرب الكعبة ، وشدد على ابن الزبير ، وتحرج موقفه وانفض عنه معظم أصحابه ، ومنهم ابناه حمزة وخبيب اللذان ذهبا إلى الحجاج وأخذا منه الأمان لنفسيهما [5] ، ، فلما رأى ذلك دخل على أمه فقال لها : « يا أماه خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ فقالت : أنت والله يا بني اعلم بنفسك ، إن كنت تعلم انك على حق واليه

[1] المصدر نفسه ، ص364 .
[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج3 ، ص63 .
[3] زيادة محمود ، الحجاج بن يوسف المفترى عليه .
[4] البلاذري احمد بن يحي بن جابر ، المصدر السابق ، ج5 ، ص376 .
[5] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج3 ، ص70 .

تدعوا فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلاعب بها غلمان بني أمية ، وان كنت إنما أردت الدنيا فبأس العبد أنت ! أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك ، وان قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ! القتل أحسن ، فدنا فقبل رأسها ، وقال : هذا والله رأيي والذي قمت به داعيا إلى يومي هذا ، وما كنت إلى الدنيا ، ولا أحببت البقاء فيها ... ولكنني أحببت أن أعلم رأيك فزدتني بصيرة مع بصيرتي ، فانظري يا أماه ، فاني مقتول في يومي هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمي الأمر لله »[1] فخرج من عندها ، وذهب إلى القتال ، فرمي بآجرة فأصابته في وجهه ، فلما وجد الدم يسيل على وجهه ولحيته قال :

فلسنا على الأعقاب تدمي كلومنـا *** ولكن على أقدامنا تقطر الدمـا[2]

وقاتل قتالا شديدا ، فتعاونوا عليه فقتلوه يوم الثلاثاء في السابع عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث سبعين هجرية في رواية الطبري الأولى ، وفي روايته الثانية أنه قتل في جمادى الثانية من نفس السنة [3] . وحمل رأسه إلى الحجاج ، وسار الحجاج وطارق بن عمرو حتى وقفا عليه ، فقال طارق : «وما ولدت النساء اذكر من هذا ، فقال الحجاج : أتمدح مخالف أمير المؤمنين ؟ قال : نعم هو أعذر لنا ، ولولا هذا لما كان عذر ، إنا محاصروه منذ سبعة أشهر وهو في غير جند ولا حصن ولا منعة فينتصف منا ، بل يفضل علينا »، فبلغ كلامهما عبد الملك بن مروان فصوب طارقا ، وقد ذكر أن ابن الزبير في يوم استشهاده قال : « ما أراني اليوم إلا مقتولا ، لقد رأيت في ليلتي كأن السماء فرجت لي ، فدخلتها ، فقد – والله- مللت الحياة وما فيها» [4] .

وبهذا انتهت دولة بن الزبير التي استمرت حوالي تسع سنوات ، منذ قيامه بالدعوة إلى نفسه بالخلافة عقب موت يزيد سنة أربع وستين هجرية إلى أن توفي سنة ثلاث وسبعين ، وعلى الفور دخل الحجاج مكة واستولى عليها ، فبايع أهلها لعبد الملك بن مروان ، وهكذا

[1] الطبري ، المصدر السابق ، ج6 ، ص188 .
[2] الطبري ، المصدر السابق ، ج7، ص79 .
[3] الطبري ، المصدر السابق ، ج6 ، ص189 .
[4] الذهبي ، المصدر السابق ، ص378

استولى عبد الملك على الحجاز كما استولى على العراق ، وكان تحت يده الشام ومصر ، فاجتمعت إذن هذه الأقطار وهي الأركان الأربعة للوطن العربي والعمد الرئيسية لدولة الإسلام [1] .

المبحث الثاني : الحركة الشيعية

المطلب الأول : حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي .

عندما عم الاضطراب أنحاء البلاد بعد موت يزيد وفرار عبيد الله بن زياد ، شرع أنصار الحسين يتصلون ببعضهم البعض بهدف وضع خطة للثأر لدمه ، إذ بعد استشهاده هزتهم الفاجعة وندموا على تقاعسهم عن نصرته والدفاع عنه ، ومعترفين بخطيئتهم بحماسة شديدة، لذلك لم يجدوا وسيلة يكفرون بها عن هذا التقصير ، ويتوبون إلى الله بها من هذا الذنب الكبير سوى الثأر للحسين [2] .

وأخذ الشيعة يعقدون الاجتماعات برئاسة سليمان بن مرد الخزاعي لدراسة الموقف ، وأسلوب العمل الذي سيتبعونه وغلب على هذه الاجتماعات موضوع التوبة والغفران ، ثم شرعوا في تجييش الناس ، وخرج التوابون من معسكرهم في شهر ربيع الأول من عام خمس وستين هجرية ، وهو الموعد الذي حددوه لخروجهم ، وكانت المحطة الأولى في مسيرتهم الانتقامية في كربلاء حيث بلغوا قبر الحسين فاسترحموا عليه وبكوا وتابوا عن خذلانهم له وبعد ليلة من البكاء كان الحماس قد ازداد ، فقرروا السير إلى الشام لقتال عبيد الله بن زياد باعتباره الرجل الذي اصدر الأمر بقتل الحسين ، لأنهم وجدوا انه الطريق الأجدى لتحقيق الانتقام [3] ومر جيش التوابين بجانب الفرات إلى أن وصلوا قرقيسياء ، حيث استقبلهم أميرها زفر بن الحارث ألكلابي بحماسة ، وخاصة انه قد جمعت بينهم

[1] الريس ضياء الدين ،المرجع السابق،ص221 .
[2] عبد اللطيف عبد الشافي محمد ، العالم الإسلامي في العصر الأموي المرجع السابق ، ص413 .
[3] طقوش محمد سهيل ، تاريخ الدولة الأموية ، ط5 ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2006 م ، ص71 .

المصلحة وهي مقاتلة الأمويين ، واقترح عليهم زفر توحيد صفوفهم معه ، إلا أنهم اعتذروا عن عدم قبول اقتراحه كما رفضوا نصيحته عن قرارهم، واكتفوا بالتزود بما يحتاجون إليه من المدينة ، ثم مضوا إلى مصيرهم [1]، والتقى التوابون بالجيش الأموي في عين الوردة من أرض الجزيرة إلى الشام الغربي من صفين سنة خمس وستين هجرية وخاضوا ضده معركة ضارية وغير متكافئة لقلة عددهم بالمقارنة مع عدد أفراد الجيش الأموي ، أسفرت عن تدميرهم ومقتل زعمائهم باستثناء رفاعة بن شداد الذي تراجع بالبقية القليلة منهم إلى الكوفة [2].

لما عاد رفاعة إلى الكوفة هو ومن بقي معه من التوابين ، وصلته رسالة من زعيم شيعي كان آنذاك في السجن ، تضمنت تقديم العزاء لهم كما أورد فيها أيضا: « ... إن سليمان قد قضى ما عليه ، وتوفاه الله فجعل روحه مع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء، ولم يكن بصاحبكم الذي به تنصرون ، إني أنا الأمير المأمور، والأمين المأمون، وأمير الجيش وقاتل الجبارين، والمنتقم من أعداء الدين ، والمقيد من الأوتار فاعدوا واستعدوا وابشروا واستبشروا ...وإلى الطلب بدماء أهل البيت ادعوكم ...» [3].

هذا هو المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب ، كان والده الأمير أبو عبيدة بن مسعود بن عمر بن عمير بن عوف بن عقدة الثقفي ، اسلم في حياة النبي (ﷺ) استعمله عمر بن الخطاب على جيش فغزا العراق . واليه تنسب وقعة جسر أبي عبيد ، نشأ المختار فكان من كبار ثقيف ، وذوي الرأي والفصاحة والشجاعة والدهاء [4].

ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي على مسرح الأحداث بعد موت يزيد بن معاوية سنة أربع وستين هجرية ، وهو من الشخصيات التي حفل بها العصر الأموي حيث كان يسعى إلى السلطان بأي ثمن ، فتقلب من العداء الشديد لآل البيت إلى ادعاء حبهم والمطالبة بثأر

---

[1] المرجع نفسه ، ص72 .
[2] الذهبي ، المصدر السابق ، ص395 .
[3] الريس ضياء الدين ، المرجع السابق ، ص149 .
[4] الذهبي ، المصدر السابق ، ص539 .

الحسين[1]. حاول الاتصال بعبد الله بن الزبير والانضمام إليه وأراد أن تكون له كلمة في دولته ، ولكنه لم يجد تجاوبا من ابن الزبير ، فانصرف عنه إلى الكوفة [2] ، حيث كان الأمر فيها مضطربا ، فأراد أن يستغل الفرصة ، فادعى المطالبة بدم الحسين وآل البيت ، كما ادعى إن لديه تفويضا بذلك من «محمد بن علي بن أبي طالب » والملقب «بابن الحنفية» ولكنه لم يكن صادقا في ذلك ، بل قرر أن يركب تيار الشيعة ليصل إلى هدفه وهو الحكم والسلطان وبعد خروج المختار من السجن وعودة التوابين كما أسلفنا اجتمعت إليه كل الشيعة ، وجد هو في أعداد الجند والسلاح ليبدأ ثورته في الكوفة ، وكان أهم ما قوى مركزه انه نجح في ضم احد الزعماء إلى صفه وهو «إبراهيم بن الاشتر » وهو ابن مالك بن الاشتر الذي كان في مقدمة أصحاب على كرم الله وجهه [3].

وأخيرا اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ويبدؤوا ثورتهم ليلة الخميس الرابع عشر من ربيع الأول سنة ست وستين هجرية ، فانتصروا على «عبد الله بن مطيع العدوي » عامل ابن الزبير في الكوفة ، فأخرجه منها واحكم سيطرته عليها وبذلك أقام دولة الشيعة ، ودعا الناس إلى البيعة فاقبلوا يبايعونه ، ولكي يثبت صحة دعوته في المطالبة بدم الحسين ، فقد تتبع قتلته ، فقتل معظمهم في الكوفة [4] . ومن ثمة أرسل عماله يوليهم على الموصل ، أرمينية ، أذربيجان ، والمدائن .

في هذا الوقت كان «عبد الملك بن مروان » ومعه ابن زياد قد عزما على فتح العراق ، فأرسل عبد الملك جيشا كبيرا تحت قيادة « عبيد الله بن زياد » لهذا الغرض ، وبمجرد وصول هذا الجيش إلى الموصل تخلى عامل المختار على الموصل ، فلما بلغت الأنباء المختار ، انتدب كبار قواده وهو «يزيد بن أنس الأسدي » وأمر له بجيش قوامه ثلاثة آلاف

[1] عبد اللطيف عبد الشافي محمد ، العالم الإسلامي في العصر الأموي، المرجع السابق ، ص413 .
[2] الطبري،المصدر السابق ،ج6،ص:676 .
[3] الريس ضياء الدين ، المرجع السابق ، ص151 .
[4] الصلابي علي محمد ، المرجع السابق ، ص 623

مقاتل ، فتوجهوا لمقاتلة ابن زياد فدارت الموقعة قرب الموصل في يوم عرفة سنة ست وستين هجرية ، فانجلت المعركة عن قتل قائد ابن زياد وانهزام جيشه. [1]

ما كاد المختار يفرغ من أمر الكوفة حتى أرسل قائده ابن الاشتر مع جيشه إلى الشمال لملاقاة ابن زياد الذي حل بالموصل ، فالتقى الجيشان عند نهر الخازر بالقرب من دجلة ، أمر ابن الاشتر جيشه بالزحف ، فتقدم إليهم جيش ابن زياد وكان معه الحصين بن نمير السكوني على ميمنته وعمير بن الحبحاب على ميسرته ، وكذا شرحبيل بن ذي الكلاع الحميري (قائد الخيل) ، ودارت الموقعة واشتد القتال حتى حلت الهزيمة بجيش ابن زياد الذي قتل في ميدان المعركة سنة سبع وستين هجرية[2] .

وبذلك استولى إبراهيم بن الاشتر على الموصل وبعث برأس عبيد الله ابن زياد إلى المختار ، فقام هذا الأخير ببعثه إلى ابن الحنفية ، وعلي بن الحسين الذي قال حين رأى رأس عبيد الله بن زياد «سبحان الله ما اغتر بالله إلا من لم يعرف نقمته أتى عبيد الله برأس الحسين وهو يتغذى واتينا برأس عبيد الله بن زياد ونحن نتغذى »[3].

[1] الريس ضياء الدين ، المرجع السابق ، ص154

[2] الصلابي علي محمد ، المرجع السابق ، ص624 .

[3] عبد اللطيف عبد الشافي محمد ، العالم الإسلامي في العصر الأموي المرجع السابق ، ص 484 .

المطلب الثاني : القضاء على المختار

كان من المتوقع أن تكون نهاية المختار على يد عبد الملك بن مروان الذي قضى على ابرز أعوانه عبيد الله بن زياد ، لكن عبد الملك كان على دراية تامة بأن هزيمة جيشه على يد المختار قد أسعدت عبد الله بن الزبير ، وفي المقابل لن يسمح هذا الأخير باتساع نفوذ المختار وتهديد دولته ، وانه لابد أن يتحرك للقضاء عليه ، ففضل الانتظار وترك المواجهة بين ابن الزبير والمختار ،لأن نتيجة المواجهة ستكون في صالحه ، فسوف يقضي احدهما على الآخر ومن يبقى تكون قوته قد ضعفت فيسهل له القضاء عليه ، وقد حدث ما توقعه عبد الملك ، فان المختار لم يكتف بانتصاره على جيش عبد الملك ، وبسط نفوذه على شمال العراق والجزيرة ، بل اخذ يعد نفسه للسير إلى البصرة لانتزاعها من مصعب بن الزبير الذي أصبح واليا عليها من قبل أخيه عبد الله بعد أن بايعه أهلها ، وهنا أصبح الصدام محتوما بين المختار وآل الزبير [1] .

سار مصعب بن الزبير بنفسه إلى قتال المختار ، والتقى به عند حروراء ، فدارت الدائرة على المختار ، فأسرع بالفرار عائدا إلى الكوفة وتحصن بقصر الإمارة ، إلا أن مصعبا حاصره في القصر فقتله واجتز رأسه سنة سبع وستين هجرية ، وأمر بصلب كفه على باب المسجد ، وبعث مصعب برأس المختار إلى أخيه عبد الله بن الزبير [2] .

[1] المرجع نفسه ، ص485

[2] الليثي خليفة بن خياط بن أبي هبيرة ، المصدر السابق ، ص264

وبذلك انتهت حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي ، فلم تنفعه ادعاءاته بحب آل البيت والطلب بثأرهم ، فقد انكشفت حيله وتخلى عنه أهل العراق ، وأسلموه إلى مصيره المحتوم ومن خلال ما سبق ذكره يمكن أن نستخلص أهم الأسباب التي أدت إلى فشل حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي وساهمت في إنهائها بشكل سريع وهي كالأتي :

أ - نفور أشراف العرب في الكوفة من حوله وقتالهم له ، ثم توجه من سلم إلى مصعب بن الزبير في البصرة واشتراكهم معه في القتال ضد المختار .

ب - إصابته بالغرور بحيث طرد عمر بن علي بن أبي طالب لأنه لم يحضر له كتابا من ابن الحنفية حيث قال له : انطلق حيث شئت فلا خير لك عندي ، فتركه وذهب إلى مصعب ، فأصبح معه ليقاتل المختار [1].

ت - تجهيز مصعب جيشا كبيرا وانضمام قواد أقوياء وذي خبرة حربية كبيرة على رأسهم المهلب بن أبي صفرة واشتراكه معه في القتال ، بينما لم يشترك إبراهيم بن الاشتر مع المختار لذلك لم يكن القتال متعادلا.

ث - اكتشاف كذب المختار ، فقد كان في البداية يشك في أمر الكتاب الذي ادعى المختار انه مرسل لأبن الاشتر من طرف ابن الحنفية ، كما كان أشراف العرب قد عرفوا بأمره وقالوا هذا كذاب [2] .

ج - تخلي ابن الحنفية عن المختار ، فقد قام على باب الكعبة وقال : «انه كان كذابا ، يكذب على الله ورسوله »[3] بل أكثر من ذلك ، فقد روى الطبري إن ابن الحنفية كتب إلى شيعته : «فاخرجوا إلى المجالس والمساجد فاذكروا الله علانية وسرا ، ولا تتخذوا من دون المؤمنين بطانة ، فان خشيتم على أنفسكم فاحذروا على دينكم الكذابين »[4].

---

[1] الخربوطلي علي حسن ، تاريخ العراق في ضل الحكم الأموي ، د ط ، دار المعارف ، مصر 1959 م، ص161.
[2] عاقل نبيه ، تاريخ خلافة بني أمية ، ط3 ، دار الفكر ، 1975م ، ص150 .
[3] ابن سعد ، المصدر السابق ، 158.
[4] الصلابي علي محمد ، المرجع السابق ، ص627 .

ح - حاجة عبد الله بن الزبير الماسة للعراق ، فهو مصدر المال والرجال الوحيد بعد ضياع الشام ومصر وبقاء المختار في العراق يهدد مكانته ، ويقطع عليه الوصول إلى بلاد فارس التي لا تزال على طاعته [1] .

المبحث الثالث: حركة الخوارج :

المطلب الأول: أهم الحركات الخارجية في عهد عبد الملك بن مروان :

بعدما تمكن الخليفة الأموي "عبد الملك بن مروان" من القضاء على كل من "عبد الله بن الزبير"، وقام بضم الحجاز والعراق، تحققت وحدة الدولة وبايعت له العواصم والأقطار، لكن فئة قليلة بالنسبة إلى كثرة الأمة بقيت خارجة على إرادة الدولة، وهم الخوارج.

الخوارج هو الاسم الذي أطلق على الطائفة التي انسحبت من جيش الخليفة "علي بن أبي طالب" بعد التحكيم في معركة الصفين، وكانوا قبلها من اشد أنصاره، ولذلك اتخذوا مبدأ "لا حكم إلا بالله"، وأطلق الخوارج على أنفسهم الشراة، بمعنى أنهم باعوا أنفسهم لله تعالى على أن لهم الجنة [2]،ويشيرون بذلك إلى قوله تعالى:(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة) [3]. واختلف في أول من تشرى منهم فقيل "عروة بن جدير"، وقيل "يزيد بن عاصم" [4]، كان يطلق عليهم الحرورية، نسبة إلى قرية حروراء التي انحازوا إليها لأول خروجهم على علي (رضي الله عنه)، ولما كان سبب خروجهم هو قبول علي

[1] الليثي خليفة بن خياط بن أبي هبيرة ، المصدر السابق ، ص268 .
[2] شلبي احمد موسوعة التاريخ الإسلامي ، ج 2 ، ط 3 ، النهضة المصرية ، القاهرة ، 1969 م ، ص 227 .
[3] سورة التوبة ، الآية 111 .
[4] البغدادي عبد القادر بن ظاهر بن محمد ، الفرق بين الفرق ، تح ، محمد محي الدين عبد الحميد ، دار التراث ، القاهرة (د ت) ص 84 .

التحكيم بينه وبين معاوية، فقد صاغوا لأنفسهم نظرية في الخلافة تقوم على مبدأين عامين يجمعان بين فرقهم المتباينة [1]:

المبدأ الأول: أن الخلافة ليست وقفا على قريش كما يذهب أهل السنة، بل تجوز لكل مسلم يكون أهلا لها حتى ولو كان عبدا حبشيا، ويجب أن يكون الخليفة باختيار حر من المسلمين، وانه إذا تم اختياره لا يصلح له أن يتنازل عنها أو يقبل التحكيم. [2]، وفي ضوء هذا المبدأ اعترفوا بخلافة أبي بكر وعمر، أما عثمان فقد اعترفوا بخلافته في شطرها الأول، ثم تبرؤوا منه وكفروه في بقية عهده، وعلي قد اعترفوا بخلافته من بدايتها إلى أن قبل التحكيم، وبعد قبوله التحكيم لم يعترفوا بخلافته، بل كفروه، كذلك لم يعترفوا بخلافة معاوية وسائر بني أمية، وكفروهم . كما كفروا عائشة وطلحة والزبير وعمرو بن العاص وغيرهم ، وعلى الجملة كفروا كل من لم ير رأيهم ويذهب مذهبهم من المسلمين . واعتبروا دارهم دار كفر وأباحوا أموالهم ودمائهم وحتى قتل أطفالهم .

المبدأ الثاني : هو وجوب الخروج على الإمام الجائر ، وهنا وجه الخطورة في حركة الخوارج حيث أشهروا السلاح في وجه مخالفيهم . [3]

لما اشتد عبيد الله بن زياد على الخوارج ، وأسرف في قتلهم ، اضطر كثيرون منهم إلى الخروج من البصرة فانحاز قسم منهم إلى " عبد الله بن الزبير في مكة" . ليدافعوا معه عن الكعبة ضد جيش " مسلم بن عقبة المري " الذي سار إليها بعد موقعة الحرة ، ولكنهم ما لبثوا أن انشقوا على ابن الزبير لما عرفوا انه لا يوافقهم على آرائهم ، وبصفة خاصة في تكفير "عثمان بن عفان " والبراءة منه [4]، وعادوا من مكة منقسمين على أنفسهم فخرج "

---

[1] حمودة عبد الحميد حسين ، تاريخ الدولة العربية الإسلامية، ط 1 ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ، 2005 م، ص 344 .

[2] الماروردي محمد البصري ، الأحكام السلطانية ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د ت)، ص 6 .

[3] عبد اللطيف محمد عبد الشافي ، العالم الإسلامي في العصر الأموي ('41 ه / 132 ه _ 661 م 750 م) المرجع السابق ص 391 .

[4] الليثي خليفة بن خياط بن أبي هبيرة ، المصدر السابق ، ص 253 .

نجدة بن عامر الحنفي " إلى اليمامة ، وعاد " نافع بن الأزرق " و " عبد الله بن الصفار " إلى البصرة ، مكونين فرقتي النجدات و الازارقة ، ومن ثم الصفرية [1]

كما ذكرنا سلفا أن الخوارج انقسموا إلى فرق عديدة خاصة بعد وفاة يزيد بن معاوية حتى وصل عدد فرقهم إلى أكثر من ثلاثين فرقة [2]. ولعل أبرزها نذكر الازارقة وهم أتباع " نافع بن الأزرق " الذين يعدون اشد فرق الخوارج تطرفنا في الأفكار والمبادئ وجنوحا إلى العنف ، ويعتبر زعيم هذه الفرقة هو أول من احدث الخلاف بين الخوارج لتطرفه ، فقد بريء من القاعدين ، الذين لا يخرجون معه للقتال ، و قال بكفر من لم يهاجر إليه ، فضلا عن إباحته أموال ودماء مخالفيه وتكفيره لمرتكب الكبيرة وحكمه بخلوده إلى النار [3].

وقد انتشرت الفرق الخارجية من البصرة إلى سائر مواطن الخوارج في دار الإسلام ، وكانت هناك فرقة من الخوارج غير هذه كلها ، لا تذكر كثيرا نظرا لقصر عمرها ولانحصارها في بيئة صغيرة ونعني بها فرقة النجدات التي كانت تقيم في اليمامة ، سرا بذلك نسبة إلى " نجدة بن عامر الذي سمح بأن يساعد الخوارج ابن الزبير في مكة [4].

اختار خوارج اليمامة أبا طالوت قائدا لهم على أن يظل حتى يجدوا خيرا منه ، إلا أنهم سرعان ما خلعوه وبايعوا نجدة . فاخذ خوارج اليمامة يعترضون القوافل حيث اعترضوا قافلة من البصرة كانت في طريقها إلى ابن الزبير في مكة ، ثم انتقل في جمع إلى بني كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، فهزمهم وقتلهم قتلا ذريعا واستولى على ما كان معهم من قمح وتمر ... الخ ولما اشتد خطرهم في وقت ضعفت حكومة ابن الزبير ، أظهر لـ " عبد الملك بن مروان " المودة ووعده بولاية اليمامة إذ تعهد بلا اقتصار عليها والتوقف عندها ، فلم ينفذ نجدة لهذا الإغراء بل بسط نفوذه كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ثم خلف واليا

[1] فلهاوزن يوليوس ، أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام ، الخوارج والشيعة ، تر ، عبد الرحمان بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1958 م، ص 69 .
[2] الأشعري أبو الحسن ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، ج 1 ، النهضة المصرية ، القاهرة (د ت) ص 155
[3] عبد اللطيف محمد عبد الشافي ، العالم الإسلامي في العصر الأموي،المرجع السابق، ص 456 .
[4] فلهاوزن يوليوس ص 75 .

على اليمامة وتوجه سنة سبع وستين هجرية إلى البحرين . واخضع بنفسه جزءا من اليمن بما فيه صنعاء (العاصمة) . وبذلك اشتدت شوكة "نجدة بن عامر الحنفي" [1] .

إضافة إلى الفرقتين اللتين ذكرناهما سابقا نجد الخوارج الصفرية وهي احد الفرق الرئيسية وفي تعيين نسبهم أقوال عدة ، فقيل أنهم أتباع " زياد بن الأصفر " وقيل " ابن عبد الله بن الصفار " كما قيل أنهم أطلق عليهم هذا اللقب لان العباءة أنهكتهم فاصفرت وجوههم فنسبوا إلى تلك الصفرة [2] . ولقد بدأت خطورتهم من خلال إتباع " صالح بن مسرح التميمي " الذي من أهم أتباعه وأنصاره " شبيب بن يزيد الشيباني " هذا الأخير كان يسكن في الجانب الأيمن من الفرات في صحراء الكوفة ، وبدأ اشتداد خطرهم خاصة بعد محاولة شبيب اغتيال "عبد الملك بن مروان" في احد مواسم الحج ، و لولا وصول الخبر إلى عبد الملك الذي أخذ حذره وانقضى الموسم بسلام[3].

[1] المرجع نفسه ، ص 79 ، 80 .
[2] السعوي ناصر – الخوارج – دراسة ونقد لمذهبهم ، دار المعرفة الدولية ، الرياض (د.ت) ص 94 .
[3] الطبري ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص 108 .

المطلب الثاني : القضاء على حركة الخوارج :

بعد انقسام فرق الخوارج التي ذكرناها سابقا أصبحت كل فرقة منها تسعى إلى التوسع وبسط النفوذ اكبر قدر ممكن، فكما أسلفنا أن «نجدة بن عامر» اخذ يتوسع يمينا وشمالا من اليمامة . وفي نفس الوقت أرسل جيشا إلى عمان بقيادة «عطية بن الأسود » فاستولى هذا الأخير عليها ، وبعث «أبا فديك» إلى حضرموت فجبى صدقات أهلها وذلك كان سنة ثمانية وستين ، ولكن عطية بن الأسود ، كان على خلاف مع «نجدة بن عامر » حيث اتهمه بأنه ما كاتبه «عبد الملك بن مروان »، حتى علم منه دهانا في الدين [1]، ومنذ ذلك الحين اهتزت مكانة «نجدة بن عامر »وسط فرقته ، فتعالت الأصوات بخلعه ، فخلع وولوا أمرهم إلى «ثابت التمار» لكنهم سرعان ما تبينوا انه لابد لمن يكون آمرهم أن يكون عربيا خالصا ، فكلفوا ثابتا بان يبحث لهم عمن يصلح لتوليهم فاختاروا لهم «أبا فديك» .

لما نال البيعة علم بان «نجدة بن عامر »كان يريد المسير إلى «عبد الملك بن مروان » فأرسل جماعة من أتباعه ليقتلوه ، فتمكنوا من قتله سنة اثنين وسبعين هـ ، وعند نهاية هذه السنة هزم «أبو فديك» أهل البصرة ولكنه في السنة الموالية أي في الثالثة والسبعين انهزم أمام جيش مؤلف من أهل البصرة وأهل الكوفة وقتل . وبهذا كان سقوط دولة النجدات[2].

[1] ابن سعد ، المصدر السابق ، ص169 .

[2] سلطان عبد المنعم عبد الحميد ، آل المهلب في المشرق الإسلامي ودورهم السياسي والحربي حتى سقوط الدولة الأموية ، مؤسسة باب الجامعة للنشر ، الإسكندرية ، 1990 م، ص26 .

أما عن الازارقة فقد جاءت تولية «المهلب بن أبي صفرة» على حربهم بناء على اختيار أهل البصرة له ، واقتران ذلك بموافقة «عبد الله بن الزبير»، إلا انه لم يخرج لقتالهم إلا بعد أن اشترط على أهل البصرة جملة شروط أجابوه إليها فخول الحق باختيار من يشاء من المقاتلة ، وان تكون له إمرة وخراج كل بلد يقع في حوزته [1].

اختار المهلب اثني عشر ألفا من البصرة ولم يكن ببيت المال سوى مائتي ألف درهم عجزت عن إعطاء الجند وعن تجهيزاتهم فبعث المهلب إلى التجار وقال لهم : «إن تجارتكم منذ حول قد كسرت بانقطاع موارد الأهواز وفارس عنكم ، فهلم فبايعوني واخرجوا معي أوفيكم إن شاء الله حقوقكم » فاخذ منهم من المال ما يصلح به عسكره ، واتخذ لأصحابهما ما يلزم من التجهيزات ، فلما انتصر المهلب على الخوارج ، قام بجباية الخراج حتى قضى للتجار ما اخذ منهم [2].

قام «مصعب بن الزبير » في أثناء ولايته للبصرة باستدعاء «المهلب بن أبي صفرة » ليشترك معه في حرب المختار سنة سبع وستين، فبعد هزيمة المختار عين مصعب المهلب واليا على الموصل والجزيرة وأذربيجان وأرمينية ، ولكن أحدا لم يستطع أن يقوم مقام المهلب في مقاومة الخوارج ، مما جعل مصعب يستدعيه من الموصل ليتولى قتالهم من جديد [3]. وبينما المهلب يقاوم الخوارج في الأهواز تمكن «عبد الملك بن مروان » من السيطرة على العراق بعد مقتل «مصعب بن الزبير»سنة اثنين وسبعين[4] .

وفي أواخر سنة اثنين وسبعين قام عبد الملك بتولية «خالد بن عبد الله بن أسيد »على البصرة الذي بادر إلى عزل المهلب وبعث مكانه أخاه «عبد العزيز بن عبد الله »على أمل أن يحوز بعض ما ناله آل المهلب من علو المكانة وتقدير الخليفة الأموي ، ولكن النتائج كانت مخيبة للآمال ، إذ خرج عبد العزيز في اتجاه فارس وجعل يزحف في البلاد حتى وصل إلى مدينة جور، فأرسل له «قطري بن الفجاءة » احد رجاله في عدد من الفرسان

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج3 ، ص66
[2] بطانية محمد ، دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ، ط1 دار الفرقان للنشر والتوزيع ، الأردن ، 1994م،ص383 .
[3] الطبري ، المصدر السابق ، ج6 ، ص166 .
[4] الليثي خليفة بن خياط بن أبي هبيرة ، المصدر السابق ، ص282 .

يدعى «صالح بن مخراق » ، فقام هذا الأخير بإعداد كمين لعبد العزيز وهو يسير ليلا وانقض عليه من كل مكان فانهزم عبد العزيز ، وأسرت زوجته ، وقتل أعداد كبيرة في صفوف جنوده[1] .

لما وصل خبر الهزيمة إلى «عبد الملك بن مروان » غضب لهذا التصرف من والي البصرة لعزله المهلب عن حرب الازارقة ، ووجه إليه كتابا عنيفا يؤكد فيه على عدم التصرف دون الرجوع إلى المهلب ، لأنه الأدرى بأمر الخوارج ، كما أمر أخاه بشرا بإمداد «خالد بن عبد الله» بجيش يساعده ، فتجمعت جيوش الكوفة بقيادة «عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ». والبصرة بقيادة «خالد بن عبد الله » والتقى الجميع في الأهواز بالمهلب ، كانت القيادة لوالي البصرة الذي جعل المهلب على ميمنته ، و «داوود بن قحذم» على ميسرته ، وزحفوا للقاء الازارقة ، إلا أن والي البصرة ورغم أوامر «عبد الملك بن مروان »ولم يأخذ بنصيحة المهلب ، فباغتهم الازارقة مرة ثانية [2].

وسط هذه الظروف المشحونة بالعصبية القبلية قام عبد الملك بضم ولاية البصرة إلى والي الكوفة «بشر بن مروان » أخيه ، وأمره أن يكلف المهلب بحرب الخوارج الازارقة فدخل المهلب بجيوشه الأهواز بعد أن رحل الازارقة عنها إلى ارض سابور ، ثم رحل حتى نزل بمدينة رامهرمز حيث التقى بالأزارقة ، فأقام خندقا حول معسكره ليحترز من مفاجآت الازارقة التي خبرها لطول عهده بصراعهم [3].

في هذه الأثناء وصل جيش من الكوفة بقيادة «عبد الرحمان بن مخنف »فنزل بالقرب من معسكر المهلب ولم تمض عشرة أيام حتى جاء خبر وفاة «بشر بن مروان»في البصرة سنة أربع وسبعين ، وعند وصول الخبر لم يستقر الجند في مواقعهم وانسحب عدد كبير منهم ، فلم يستطع «عبد الرحمان بن مخنف » أن يعيد أولئك الجنود [4] ووسط تراجع عدد الجنود في رامهرمز فسارع «عبد الملك بن مروان »لإيجاد رجل قوي وشديد يوليه أمر العراق

[1] الطبري ، المصدر السابق ، ج6 ، ص169.
[2] المصدر نفسه ، ص171.
[3] ابن الأثير المصدر ، السابق ج3 ص121 (سابور هي مدينة في فارس) .
[4] سلطان عبد المنعم عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص46 .

فكان ذلك هو «الحجاج بن يوسف الثقفي»الذي كانت له ولاية العراق سنة خمس وسبعين ، فبدأ بإرسال البعوث إلى المهلب ، ورد أولئك الفارين إلى رامهرمز ، حيث أخرجهم بعد أن ألقى فيهم قائلا : «... قد بلغني رفضكم المهلب ، وإقبالكم على مصركم عصاة مخالفين ، واني اقسم لكم بالله لا أجد احد بعد ثالثة إلا ضربت عنقه وأنهبت داره »[1]، ولما وصل العديد من الجنود ومعهم كتب الحجاج إلى المهلب قال : «قدم العراق اليوم رجل ذكر »[2] بذلك بدأ كل من «المهلب بن أبي صفرة » و«عبد الرحمان بن مخنف »في الزحف نحو الازارقة وإجلائهم عن رامهرمز ، فعندما شعر الازارقة بخطورة المواجهة وقوة منافسيهم ، تراجعوا إلى سابور ، فتبعهم المهلب وكذا عبد الرحمان حيث دارت معارك عنيفة قتل خلالها بن مخنف في رمضان من سنة خمس وسبعين، إلا أن المهلب صمد برجاله في وجه الازارقة[3] .

بعث الحجاج بـ «عتاب بن ورقاء »خلفا لابن مخنف لقيادة أهل الكوفة ، وأمره في حال دارت المعارك فعليه أن يستمع إلى المهلب ويطيعه ، لكن العصبية القبيلة لعبت بعقول القادة وكانت هناك خلافات عديدة بين الرجلين ، وأدرك الحجاج خطر وجود قائدين متنافسين في مواجهة الخوارج ، فأمر عتاب بالعودة إلى الكوفة ، فقام المهلب بإسناد قيادة أهل الكوفة إلى ابنه حبيب ، وهكذا توحدت قيادة الحرب ضد الازارقة وأصبحت بيد آل المهلب[4].

واستمرت المعارك بين المهلب و الازارقة حتى عام سبع و سبعين هجري ، حيث وقع الاختلاف بينهم ، وانقسموا على أنفسهم، فيذكر الطبري روايتين عن سبب اختلافهم ، فالرواية الأولى أن عاملا «لقطري بن الفجاءة » يدعى « المقعطر الضبي » قتل رجلا ذا بأس من الازارقة ، فاشتكى الازارقة إلى زعيمهم وطلبوا منه أن يمكنهم من المقعطر ليقتلوه ، فرفض ذلك ودافع عنه ، إلا أن كل فريق صمم على رأيه فوقع الاختلاف بينهم ، أما الرواية الثانية فهي تعود إلى مؤامرة دبرها المهلب بن أبي صفرة ضدهم ، فيقال أن

[1] العسكري أبو هلال ، الأوائل ، ج2 ، دار المعرفة للنشر والتوزيع ، الرياض ، 1981م، ص67.
[2] المرجع نفسه ، ص96.
[3] سلطان عبد المنعم عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص51.
[4] ابن الأثير ،المصدر السابق ،ج3 ،ص135.

رجلا حدادا من الازارقة كان يصنع نصالا مسمومة فيرمي بها أصحاب المهلب ، فشكا أصحابه منها ، فوجه المهلب رجلا بكتاب أمره أن يلقيه في عسكر قطري ، فوقع الكتاب في يد هذا الأخير فإذا فيه : «أما بعد فان نصالك وصلتنا ، وقد أنفذت إليك ألف درهم فاقبضها وزدنا من هذه النصال »، وأمر قطري بقتله ، فأنكر عليه : «عبد ربه الكبير » وبعض أصحابه قتله ، فوقع الاختلاف بينهم [1].

ومهما تكن أسباب الاختلاف فقد خلع أكثر الأزارقة «قطري بن الفجاءة»، وولوا بدلا منه «عبد ربه الكبير »، وبقي مع القطري نحو ربعهم أو خمسهم ، فتحاربوا حتى خرج قطري بمن معه إلى طبرستان وبقي عبد ربه ومن تبعه ، وكانت قواتهم قد ضعفت وانهارت ، فقام المهلب باستغلال الفرصة التي كان يتحينها، وهزم عبد ربه ومن معه ، فلم ينج منهم إلا القليل وكانت نهاية هؤلاء في عام سبعة وسبعين [2].

وأرسل الحجاج إلى قطري جيشا بقيادة «سفيان بن الأبرد » من أهل الشام فلحقوا به في جبال طبرستان ، فقاتلوه وتفرق عنه أصحابه، ولما أراد الفرار وقع عن دابته في أسفل الجبال فأصيب ، ومن ثمة أسرع بعض الجند إليه فقتلوه وكان ذلك سنة سبع وسبعين، وتتبع سفيان من بقي من جيش قطري حتى تمكن من القضاء عليهم في نفس السنة ، وكانت هذه نهاية الخوارج الازارقة بعد صراع عنيف معظم مراحله قادها آل المهلب [3].

وفي نفس الوقت الذي كان المهلب يحارب فيه الازارقة ، خرج على الحجاج «صالح بن مسرح التميمي » الذي خرج بالجزيرة شمال العراق سنة ست وسبعين ،إلا أن الحجاج سرعان ما قضى عليه في ذاك العام ، فخلف صالح شخص آخر هو «شبيب بن يزيد » ، الذي كان يقاتل في عدد قليل ، وتمكن من هزيمة العديد من جيوش الحجاج ، كما تمكن من دخول الكوفة ، إلا انه لم يبق بها طويلا ، ثم عاد إليها ثانية ، وضرب عليها الحصار بعد

[1] الطبري ، المصدر السابق ، ج6 ، ص303 .
[2] المصدر نفسه : ص304 .
[3] اليعقوبي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص275 .

أن هزم جيشا للحجاج ، وقتل قائده «عتاب بن ورقاء »[1] فاضطر الحجاج إلى أن يطلب المدد من «عبد الملك» ، وقاد الجيش بنفسه، حيث تمكن من هزيمة شبيب لكنه فر إلى الأهواز ، فأرسل الحجاج وراءه جيشا التقى به هناك ، إلا أن شبيبا لم يقتل في المعركة بل مات غرقا بأحد الأنهار وهو يعبر بحصانه على قنطرة عليه ، فزلت قدم فرسه ، ووقع حتى غرق وكان ذلك سنة سبع وسبعين ، بهذا تمكن الحجاج من القضاء على هذه الحركة[2] .

[1] الراوي ثابت إسماعيل ، العراق في العصر الأموي من الناحية السياسية والإدارية والاجتماعية ، مكتبة الأندلس ، بغداد ، (د.ت) ، ص238.

[2] الريس ضياء الدين ، المرجع السابق ، ص 240.

المبحث الرابع : ثورة عبد الرحمان بن الأشعث .

المطلب الأول : أسباب ثورة ابن الأشعث .

هذه واحدة من الثورات العديدة التي قام بها أهل العراق ضد الدولة الأموية ، ولم يكن نشوبها على أساس مذهبي كما هو الحال بالنسبة لثورات الخوارج والشيعة ، بل دفع اليها الكراهية المتبادلة بين قائدها وبين والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي ، وقائد هذه الثورة هو عبد الرحمان بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي [1] ، وقد بدأت هذه الثورة من إقليم سجستان ، وذلك الإقليم الذي اتعب الأمويين ، وكان كثير الانتفاض والتمرد عليهم [2]، فلما كانت ولاية الحجاج بن يوسف على العراق صبر كثيرا على تجاوزات رتبيل ملك سجستان ضد الدولة ، واستغلاله الظروف الصعبة التي كانت تمر بها ،ومنعه الجزية ، فلما انتهت مشاكل العراق بكسر شوكة الخوارج سنة سبع وسبعين هجرية ، قرر الحجاج أن يؤدب رتبيل ، فأرسل إليه جيشا سنة تسع وسبعين هجرية بقيادة «عبيد الله بن أبي بكرة »[3]، وأمره أن يتوغل في سجستان ويدك قلاع رتبيل وحصونه ، وقد فعل عبيد الله ما أمر به ، وتوغل في البلاد وأصاب كثيرا من الغنائم ، إلا أن رتبيل تظاهر بالهزيمة أمامه ، واخذ يتراجع ، فاطمع المسلمين في اللحاق به ، وما إن وصلوا قريبا من مدينته ، حتى أطبق عليهم رتبيل وجنوده وقضى على «عبيد الله بن بكرة» ومعظم جيشه[4] .

كان لهزيمة هذا الجيش وقع الم في نفس الحجاج ، بل في نفس عبد الملك بن مروان أيضا فاستأذن الحجاج عبد الملك في أن يبعث جيشا كبيرا للانتقام من رتبيل ، فكان له جيشا قوامه أربعين ألفا ، وبالغ في تجهيزه بالخيول الروائع والسلاح الكامل [5] ، وبلغ من فخامة

---

[1] الذهبي ، المصدر السابق ،ج4 ، ص183.

[2] احمد بن يحي بن جابر البلاذري ، فتوح البلدان ، تح : عبد الله وعمر أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ، 1957م ، ص491.

[3] الطبري ، المصدر السابق ، ج7، ص218.

[4] الليثي خليفة بن خياط بن أبي هبيرة ، المصدر السابق ، ص284.

[5] الطبري ، المصدر السابق ، ج7، ص224.

الجيش إن سماه الناس جيش الطواويس [1] ، واسند الحجاج قيادته إلى ابد الرحمان بن الأشعث رغم علمه بموقفه منه ، وقد نبه الحجاج إلى هذا الخطأ الفادح عم ابن الأشعث إلا وهو «إسماعيل بن الأشعث »حيث قال له : «لا تبعثه فاني أخاف خلافه ، والله ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوالي من الولاة عليه طاعة وسلطان »[2] ، لكن الحجاج لم يأخذ بنصيحته ، ومضى عبد الرحمان بن الأشعث بهذا الجيش إلى سجستان ، وكان ذلك سنة ثمانين هجرة ، فلما بلغت الأخبار رتبيل كتب إلى عبد الرحمان يعتذر إليه مما حل بالمسلمين في بلاده ويطلب الصلح ، لكن ابن الأشعث رفض ذلك ولم يقبل اعتذاره ، واخذ يتوغل في بلاده ، فحاول رتبيل أن يكرر مع عبد الرحمان ما فعله بعبيد الله بن أبي بكرة ، فاخذ يخلي البلاد والحصون أمامه ليوقعه في فخه، إلا أن عبد الرحمان بن الأشعث تفطن إلى ذلك [3]، وكان كما يقول الطبري : «كلما حوى بلدا بعث إليه عاملا وبعث معه أعوانا ، ووضع البريد فيما بين كل بلد وبلد ، وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب ، ووضع المسالح بكل مكان مخوف حتى إذا جاز من أرضه أرضا عظيمة ، وملأ يديه من البقر والغنائم العظيمة حبس الناس عن الدخول في ارض رتبيل ، وقال : نكتفي بما أصبناه العام في بلادهم ، حتى نجبيها ونعرفها ، ويجترئ المسلمون على طرقها ، ثم نتعاطى في العام المقبل ما وراءها ، ثم لم نزل ننتقص في كل طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم و ذراريهم ، وفي أقصى بلادهم وممتنع حصونهم ثم لا نزايل بلادهم حتى يهلكهم الله »[4].

من خلال ما أورده الطبري يظهر لنا بوضوح أن خطة عبد الرحمان بن الأشعث كانت سديدة وعملية ، وتدل على ذكائه وحنكته وتجربته وكتب ابن الأشعث إلى الحجاج بما حققه من فتوحات وبخطته التي اعتزم تنفيذها، إلا أن الحجاج رفض هذا الرأي ولم يعجبه ذلك ، ورد عليه ردا قاسيا اتهمه فيه بالضعف ، وهدده بالعزل إن لم يفعل ما أمره به [5] أحس ابن

[1] المصدر نفسه ، ص225 .
[2] الصلابي علي محمد ، المرجع السابق ، ص675 .
[3] اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص195 .
[4] الطبري ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 225 .
[5] المصدر نفسه ، ص230.

ابن الأشعث بالإهانة من مخاطبة الحجاج له بهذا الأسلوب العنيف ، فجمع كبار جنده ، وهو في ثورة غضب ، وقال لهم : «أيها الناس ، إني لكم ناصح ، ولصلاحكم محب ، ولكم في كل ما يحيط بكم نفعه ناظر ، وقد كان من رأي فيما بينكم وبين عدوكم رأي استشرت فيه ذوي أحلامكم ، وأولي التجربة للحرب منكم ، فرضوه لكم رأيا ورأوه لكم في العاجل والأجل صلاحا وقد كتبت إلى أميركم الحجاج ، فجاءني منه كتاب يعجزني ويضعفني ، ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في ارض العدو ، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها بالأمس ، وإنما أنا رجل منكم ، امضي إذا مضيتم وآبي إذا أبيتم »، فثار إليه الناس وقالوا : «لا بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع»[1] .

ما كاد أهل العراق يسمعون ابن الأشعث حتى أعلن خطباؤهم وشعراؤهم السخط على الحجاج وضرورة خلعه ، ودعوا عبد الرحمان بن الأشعث إلى البيعة ، فاستجاب على الفور وقال : «تبايعوني على خلع الحجاج عدو الله ، وعلى النصرة لي وجهاده حتى ينفيه الله من ارض العراق »فبايعه الناس ، ولم يذكر خلع عبد الملك [2] ، ومن هنا بدأت ثورة عبد الرحمان بن الأشعث ، الذي زحف بجيشه بعدما انضم إليه عدد كبير من كبار التابعين منهم «سعيد بن جبير »«عامر بن شراحيل الشعبي »، «عبد الرحمان بن أبي ليلى » ، و«الحسن بن أبي الحسن البصري »،وكان هؤلاء لا يرون من الحجاج إلا الوجه المظلم ، كوال قاس طاغية مستبد ، فهم يرون أن حل المشاكل يمكن أن يكون بالوعظ والإرشاد [3]،كما أسلفنا زحف الجيش إلى العراق قاصدا الحجاج ، فلما جاءت الأخبار هذا الأخير كتب إلى عبد الملك «بن مروان » يخبره بالأمر ، ويطلب منه المدد ، فكان له ما أراد وكان المهلب بن أبي صفرة ، في ذلك الوقت في خراسان فلما بلغته الأخبار كتب إلى ابن الأشعث يحذره من مغبة العمل الذي أقدم عليه ، وينهاه عن تفريق كلمة المسلمين ويسفك

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج4 ، ص461.
[2] المصدر نفسه ، ص463.
[3] الليثي خليفة بن خياط بن أبي هبيرة ، المصدر السابق ، ص286.

دمائهم ، إلا أن ابن الأشعث لم يعر نصح المهلب أي اهتمام ، فتقدم نحو العراق وبذلك أصبحت المواجهة بين الحجاج وعبد الرحمان بن الأشعث أمرا محتوما [1] .

[1] بن زيد الخرعان عبد الله بن عبد الرحمان ، اثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ، ط1 ، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع ، الرياض ، 2003 م،ص 547 .

المطلب الثاني : نهاية ابن الأشعث

أصبح الصراع بين الحجاج بن يوسف الثقفي و «عبد الرحمان بن الأشعث » مسألة وقت خاصة وان هذا الأخير بدأ يزحف متقدما الخطوة تلو الأخرى ، وكذا استعداد الحجاج لمواجهته بعد إرسال عبد الملك بن مروان بالجيوش إليه وهكذا كانت بدية الثورة.

1 معركة الزاويــة:

قرر الحجاج مواجهة ابن الأشعث ومن معه قبل دخولهم العراق ،فأرسل الكتائب تلوى الأخرى لكن لم يستطع إيقاف ابن الأشعث الذي تمكن من الانتصار عليها ، وتقدم إلى الإمام حتى دخل البصرة بعد أن تركها الحجاج وسار إلى الزاوية[1] حيث دارت بينهما معركة في محرم سنة اثنين وثمانين ، انتصر فيها الحجاج فاضطر ابن الأشعث إلى مغادرة البصرة فعاد الحجاج إليها ، إلا أن العديد من أهل الكوفة وأهل البصرة انضموا إلى ابن الأشعث ، فتزايدت جموعه حتى بلغت مائة ألف مقاتل [2] ، وكان عبد الرحمان ابن الأشعث لما رأى إقبال الناس عليه واستجابتهم لدعوته أخ ذ يفكر في خلع «عبد الملك بن مروان »، وهنا تطورت الثورة تطورا كبيرا وخطيرا فتحولت من ثورة لخلع الحجاج والى العراق إلى ثورة على الخليفة الأموي نفسه [3].

2- **معركة دير الجماجم** : لما رأى أهل الشام بنو أمية قوة ابن الأشعث أشاروا على ا عبد الملك بخلع الحجاج وقالوا : « إن كان إنما يرضى أهل العراق أن تنزع عنهم الحجاج فانزعه عنهم ، وتخلص لك طاعتهم ، فان عزلك له أيسر من حربهم »، فبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه « محمد بن مروان » بالجيش إلى العراق وأمرهما إن يعرضا على أهله نزع الحجاج ، وان تجري عليهم أعطياتهم ، كما تجري على أهل الشام وان ينزل ابن الأشعث أي بلد من العراق شاء ، وان يكون واليا عليه ، فان قبلوا نزعنا عنهم الحجاج

---

[1] الحموي ياقوت ، المصدر السابق ، ج2 ، ص503(الزاوية اسم يطلق على عدة أماكن ، والمراد به هنا موضع قرب البصرة) .

[2] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج4 ، ص467 .

[3] الطبري ، المصدر السابق ، ج7 ، ص234.

ويكون «محمد بن مروان » مكانه على العراق وان أبوا فالحجاج أمير الجميع وولي القتال[1] .

لما بلغ الحجاج ما بلغه من عبد الملك كان من الطبيعي أن يستاء من هذا وعز عليه أن يضحي به عبد الملك بعد كل ما قدم له من خدمات، وكتب إليه يذكره بما حدث من أهل العراق مع « عثمان بن عفان » (ﷺ) حيث قال : «يا أمير المؤمنين والله لئن أعطيت أهل العراق نزعي ، لا يلبثون إلا قليلا حتى يخالفوك ويسيروا إليك ، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك الم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الاشتر على عثمان بن عفان ؟ فلما سألهم ما يريدون قالوا : نزع سعيد بن العاص ، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه ، إن الحديد بالحديد يفل ، خار الله لك فيما رأيت والسلام عليك »[2] ،غير أن عبد الملك كان مقتنعا بالفكرة ، وان مصلحة الدولة عنده فوق كل اعتبار ، ورأى في ذلك منع الحرب [3] ، ولكن من حسن حظ الحجاج أن أهل العراق لما عرضت عليهم الفكرة رفضوها بقوة ، مع أن ابن الأشعث قبلها وحثهم على قبولها لكنهم لم يوافقوه ، بل جددوا خلع عبد الملك ، وظنوا الفرصة واتتهم للتخلص من الحكم الأموي ، ولما كان هذا الرفض من أهل العراق ، رفض ابن الأشعث مقترحات عبد الملك ، عندها سلم «محمد بن مروان »و عبد الله بن عبد الملك قيادة الجيوش للحجاج وقالا : «شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك، فإنا قد أمرنا أن نسمع ونطيع لك» [4].

بدأ الفريقان يستعدان للقتال ، فاشتبكا في أشهر وقائعهم التي دارت بينهم حيث زادت عن ثمانين موقعة في دير الجماجم ،والتي استمرت مائة يوم حتى حلت الهزيمة بابن الأشعث في الرابع من جمادي الثانية سنة ثلاث وثمانين هجرية[5]، ثم دارت معركة أخرى بعدها في

---

[1] المصدر نفسه ، ص 245 .

[2] احمد بن يحي بن جابر البلاذري ، فتوح البلدان ، المصدر السابق ، ص528 . الطبري ، المصدر السابق ، ج7 ص246.

[3] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج4 ، ص471 .

[4] الطبري ، المصدر السابق ، ج7 ، ص246 .

[5] الحموي ياقوت ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 503 .(دير الجماجم موقع قرب الكوفة من طريق البصرة) .

مسكن في شعبان من نفس السنة ، فهزم ابن الأشعث أيضا ثم ولى هاربا إلى سجستان [1]، حيث كان قد تصالح مع رتبيل على أن يسقط عنه الخراج إن ظفر ، وان هزم يأوي إليه ويحميه [2] ، ولكن الحجاج هدد رتبيل إن لم يسلم إليه ابن الأشعث ليغزون بلاده بألف ألف مقاتل [3].

فرضخ رتبيل للتهديد وعزم على تسليم ابن الأشعث إليه ، فلما أحس ابن الأشعث بغدر رتبيل ألقى بنفسه من فوق القصر الذي كان فيه ، فمات ، عندها اخذ رتبيل رأس ابن الأشعث وأرسله إلى الحجاج وكان ذلك سنة خمس وثمانين هجرية[4].

وهكذا انتهت حياة ابن الأشعث الذي قاد أخطر ثورة ضد عبد الملك بن مروان ، أريقت فيها دماء عشرات الآلاف من المسلمين ، وهي ثورة دفعت إليها الأحقاد الشخصية المتأصلة في نفس ابن الأشعث والحجاج كل منهما للأخر هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى بغض أهل العراق للحكم الأموي ، وقسوة وشدة الحجاج التي دفعت بجمهور كبير من العلماء للانضمام للثورة والتخلص من الحجاج »[5].

[1] الليثي خليفة بن خياط بن أبي هبيرة ، المصدر السابق ، ص289.
[2] الذهبي ، المصدر السابق ،ج4 ، ص186.
[3] اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص201.
[4] الطبري ، المصدر السابق ، ج7 ، ص289.
[5] الذهبي ، المصدر السابق ،ج4 ، ص188.

الخاتمــة :

إن تمسك بعض زعماء أهل الشام باستمرار دمشق مركزا للخلافة كان كبيرا رغم ما تعرضت له الوحدة القبلية لأبناء الشام من هزات عنيفة ، حيث أفرزت الأحداث آنذاك صراعا بين القبائل القيسية واليمنية ،وبعد محاولات عديدة لرأب الصدع بينهما اتفق الطرفان على الالتقاء في الجابية .

إلا أن القيسيين عدلوا عن ذلك ، وحدثت واقعة مرج راهط ، ثم مؤتمر الجابية الذي أصبحت بموجبه الخلافة الأموية لمروان بن الحكم ، الذي سرعان ما ضم مصر إلى الدولة الأموية .

ووسط هذه الظروف العصيبة التي مرت بها الدولة عهد مروان بن الحكم لأبنيه عبد العزيز بن مروان وعبد الملك بن مروان ، هذا الأخير وجد نفسه أمام العديد من الحركات المعادية لدولته .

لقد استطاع عبد الملك بن مروان أن يقضي على كل الحركات المعادية لدولته ، حيث تعددت أساليبه في القضاء عليها ، فتغلبت عليها الواحدة تلو الأخرى ، بوضعه لأساليب مناسبة مكنته من تحقيق الأهداف المخطط لها ، وقد أثبتت الأحداث نجاعة أساليبه وقدرته على احتواء هذه الحركات من خلال معرفته الجيدة لها .

فنجده اعتمد أسلوب الحصار في مواجهته لعبد الله بن الزبير ، حيث اجبر على الخروج لمواجهة الحجاج بن يوسف الثقفي، وتمكن هذا الأخير من القضاء عليه فكانت نهاية حركة ابن الزبير .

وتتضح لنا حكمة ودهاء عبد الملك بن مروان في وقوفه موقف المتفرج ، من الصراع بين مصعب بن الزبير والمختار بن أبي عبيد الثقفي، الذي انتهى بمقتل المختار ونهاية حركة لم يبذل عبد الملك بن مروان أي جهد في القضاء عليها .

كما اعتمد الخليفة عبد الملك بن مروان على قواد أشداء في القضاء على اغلب الحركات المعادية لدولته ، فكان للمهلب بن أبي صفرة الدور الرئيسي في القضاء على

حركة الخوارج ،وفي بداية الصراع مع عبد الرحمان بن الأشعث اتبع عبد الملك بن مروان سياسة اللين وانتقل إلى القوة التي وظف لها الحجاج بن يوسف الثقفي فقضى على هذه الثورة.

وبقضائه على هاته الحركات تمكن عبد الملك بن مروان من إعادة الوحدة السياسية للدولة الأموية ، وتوطيد دعائمها .

الفهـرس

مقدمـة

الفصل الأول : ظروف تولي عبد الملك بن مروان الخلافة ص3

المبحث الأول : أوضاع الدولة الأموية قبل خلافة عبد الملك بن مروان ص3

المبحث الثاني : تولي عبد الملك بن مروان الخلافة ص15

المبحث الثالث : عبد الملك بن مروان في سدة الخلافة ص21

الفصل الثاني : الأحزاب والقوى المعارضة لبني أمية في عهد
عبد الملك بن مروان ..... ص 29

المبحث الأول : الحزب الزبيري ص29

المبحث الثاني : الحركة الشيعية ..... ص43.

المبحث الثالث: حركة الخوارج ..... ص49.

المبحث الرابع : ثورة عبد الرحمان بن الأشعث ص59

خاتمـــــة

قائمة المصادر والمراجع

الفهـــرس

قائمة المصادر والمراجع :

أولا : المصادر :

1. ابن حزم الأندلسي ، جمهرة أنساب العرب ، تح : عبد السلام محمد هارون،(د.ط) القاهرة، (د.ت).
2. ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تح : مفيد محمد قميحة ، ج 5 ، ط1 ، دار الكتب العلمية بيروت ، 1983م.
3. أبو الحسن الأشعري ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، ج 1،(د.ط)،النهضة العربية ، القاهرة،(د.ت).
4. أبو فرج الأصبهاني ، الأغاني ، ج1 ، (د.ط) ، دار صعب ، بيروت،(د.ت) .

- أبو فرج الاصبهاني ، الأغاني ، ج2 ، (د.ط) ، دار صعب ، بيروت ، (د.ت).

5. أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، تاريخ اليعقوبي ، ج 2،(د.ط)،دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، 1960م.

- أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح : تاريخ اليعقوبي ، ج 3،(د.ط) دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، 1960م.

6. أحمد بن يحي بن جابر البلاذري، أنساب الأشراف ، ج 1 ، (د.ط) ، مطبعة بيروت 1979م - أحمد بن يحي بن جابر البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج5 ، (د.ط) ، مطبعة بيروت،1979م.
7. أحمد بن يحي بن جابر البلاذري، فتوح البلدان ، تح: عبد الله وعمر أنيس الطباع دار النشر للجامعيين ، بيروت ، 1957م.
8. جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج1 ، (د.ط) ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، مصر 1972م.
9. الحافظ بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية،ج 3 ، ط1،الدار المتوسطة للنشر والتوزيع ، تونس ، 2005م.

- الحافظ بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية ، ج 4 ، ط 1 ، الدار المتوسطة للنشر والتوزيع ، تونس ، 2005م.

- الحافظ بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية ، ج 7 ، ط 1 ، الدار المتوسطة للنشر

والتوزيع ، تونس ، 2005م.
10. خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الليثي، تاريخ خليفة بن خياط ، تح : أكرم ضياء العمري ، ط2 ، دار القلم ، بيروت ، 1977م .
11. شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء ، تح : محمد أسعد طلس ، ج3 ، (د.ط) ، دار المعارف ، مصر ، 1962م.
- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء ، تح : محمد أسعد طلس ، ج4 ، (د.ط) ، دار المعارف ، مصر ، 1962م.
12. عبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها ، (د.ط)،مكتبة المثنى للنشر والتوزيع ، بغداد ، (د.ت).
13. عبد القادر بن ظاهر بن محمد البغدادي ، الفرق بين الفرق ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، (د.ط) ، دار التراث ، القاهرة ، (د.ت).
14. عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، الإمامة والسياسة ، ج1 ، ط3 ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 2009م .
15. عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار ، ج 4 ، ط1 ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1996م .
16. علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد، الكامل في التاريخ ج2 ، ط3 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، 1980م.
- علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد،الكامل في التاريخ ، ج3 ، ط3 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، 1980م.
- علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد، الكامل في التاريخ ، ج4 ، ط3 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، 1980م.
17. محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك ، ج 6 ، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت،لبنان ، 2010م.
- محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك ، ج 7 ، ط1 ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، لبنان ، 2010م.
18. محمد بن سعد بن منيع البصري، الطبقات الكبرى ، ج2 ، (د.ط) ، دار صادر بيروت

، 1957م.
- محمد بن سعد بن منيع البصري ، الطبقات الكبرى ، ج 3 ، (د.ط) ، دار الفكر العربي،القاهرة ، (د.ت).
- محمد بن سعد بن منيع البصري، الطبقات الكبرى ، ج 5 ، (د.ط) ، دار صادر بيروت،1957م.
19. محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات والذيل عليها ، تح : إحسان عباس،ج 2، (د.ط) دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، 1974م.
20. محمد بن يزيد المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، ج 2 ، ط 1 ، دار الفكر العربي القاهرة ، 1997م.
21. المسعودي،مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ج 3 ط4، مطبعة السعادة ،القاهرة ،1974م.
22. ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج1 ، (د.ط) ، دار صادر ، بيروت 1979م.
- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج2 ، (د.ط) ، دار صادر ، بيروت ، 1979م.

ثانيا المراجع :

1. أبو هلال العسكري، الأوائل ، ج 2 ، (د.ط) ، دار المعرفة للنشر والتوزيع،الرياض 1981م.
2. أحمد إبراهيم العدوى ، الأمويون والبيزنطيو ن ، (د.ط) ، مكتبة النهضة ، القاهرة 1994م.
3. أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي ، ج 2 ، ط3 ، دار النهضة المصرية،القاهرة

1969م.
4. أمير عبد العزيز، الوجيز في تاريخ الإسلام والمسلمين ، ط 1 ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2003م.
5. ثابت إسماعيل الراوي، العراق في العصر الأموي من الناحية السياسية والإدارية والاجتماعية ، (د.ط) ، مكتبة الأندلس ، بغداد ، (د.ت) .
6. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي –الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والأندلس (1هـ -132هـ /622م-749م)،ج1 ط13 ، دار الجيل، بيروت ، 1991م .
7. حمدي شاهين،الدولة الأموية المفترى عليها ، ط2 ، دار القاهرة ، مصر ، 2005م.
8. خليل إبراهيم جفال ، الخليفة عبد الملك بن مروان الناقد الأديب ، ط 1 ، منشورات دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع ، الإسكندرية ، 1991م.
9. سهيل طقوش محمد، تاريخ الدولة الأموية ، ط 5 ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان 2006م.
10. ضياء الدين الريس، عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية – حياته وعصره (د.ط) ، القاهرة ، (د.ت).
11. عبد الحميد حسين حمودة، تاريخ الدولة العربية الإسلامية ، ط 1 ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ، 2005م.
12. عبد الشافي محمد عبد اللطيف ، العالم الإسلامي في العصر الأموي (41هـ 132هـ / 661م-750م) ، ط 1 ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة القاهرة ، 2008م.
13. عبد الشافي محمد عبد اللطيف ، العالم الإسلامي في العصر الأموي (41هـ 132هـ / 661م -750م) ، ط3 ، دار الاتحاد التعاوني للطباعة ، مصر، 1996م.
14. عبد الله بن عبد الرحمان بن زيد الخرعان، أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ، ط1 ، مكتبة الرشد للنشر ، الرياض ، 2003م.

15. عبد الله عثمان الخراشي ، عبد الله بن الزبير، رسالة ماجستير ، جامعة الملك سعود ، كلية الآداب ، الرياض ، 1988م.
16. عبد المنعم عبد الحميد سلطان ، آل المهلب في المشرق الإسلامي ودورهم السياسي والحربي حتى سقوط الدولة الأموية ، (د.ط) ، مؤسسة باب الجامعة للنشر الإسكندرية ، 1990م.
17. علي حسن الخربوطلي، تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ، (د.ط) ، دار المعارف ، مصر ، 1959م
18. ماجد لحام ، عبد الله بن الزبير ، ط1 ، دار القلم ، دمشق ، 1995م.
19. محمد أسعد طلس، تاريخ العرب ، ج 1 ، ط 2 ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، 1979م
20. محمد البصيري الماوردي، الأحكام السلطانية ، (د.ط) ، دار الكتب العلمية بيروت ، (د.ت).
21. محمد الخضري بك ،محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (العرب قبل الإسلام – البعثة النبوية -الخلافة الراشدة)،الدولة الأموية والدولة العباسية،دار الكتاب العربي بيروت ، 2006م .
22. محمد علي الصلابي، الدولة الأموية ، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار ، ج 1 ط1 ، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع ،مصر، 2005م.
23. محمود شاكر، عبد الله بن الزبير ، ط1 ، المكتب الإسلامي ، 1998م.
24. ناصر السعوي، الخوارج -دراسة ونقد لمذهبهم- (د.ط) ، دار المعرفة الدولية الرياض ، (د.ت).
25. نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بني أمية ، ط3 ، دار الفكر ، 1975م.
26. يوليوس فلهاوزن، أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام -الخوارج والشيعة- تر : عبد الرحمان بدوي ، (د.ط) ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1958م.